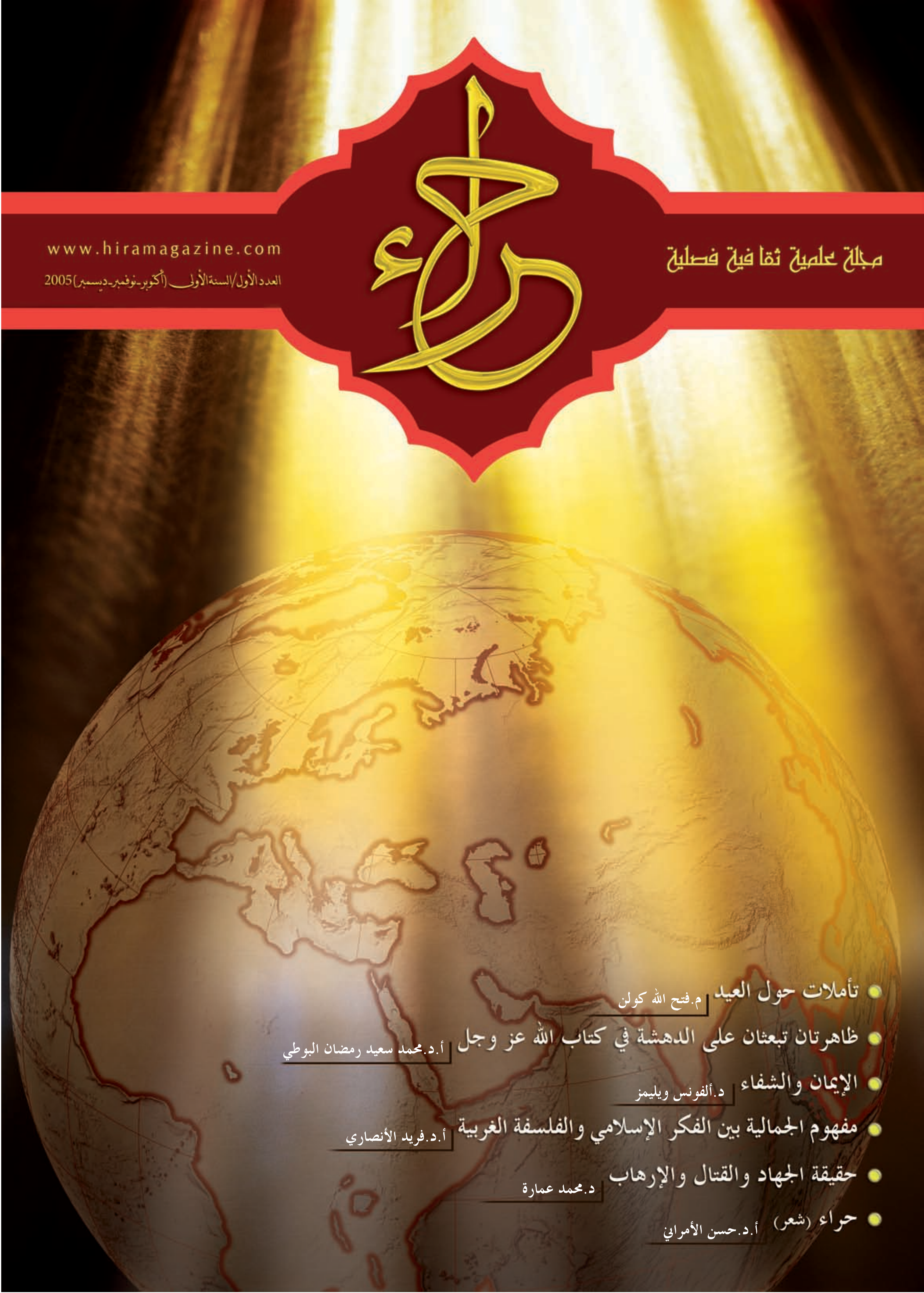

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com
العدد الأول/السنة الأولى (أكتوبر-نوفمبر-ديسمبر) 2005
تأملات حول العيد م.فتح الله كولن
ظاهرتان تبعثان على الدهشة في كتاب الله عز وجل أ.د.محمد سعيد رمضان البوطي
الإيمان والشفاء د.ألفونس ويليمز
مفهوم الجمالية بين الفكر الإسلامي والفلسفة الغربية أ.د.فريد الأنصاري
حقيقة الجهاد والقتال والإرهاب د.محمد عمارة
حراء (شعر) أ.د.حسن الأمراني

المحتويات

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.

صاحب الإمتياز
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

رئيس التحرير
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

شارك في الترجمة
أ.د. صفصافي أحمد القطوري
أورخان محمد علي
بهاء الدين إبراهيم نعمة الله
مصطفى الستيتي

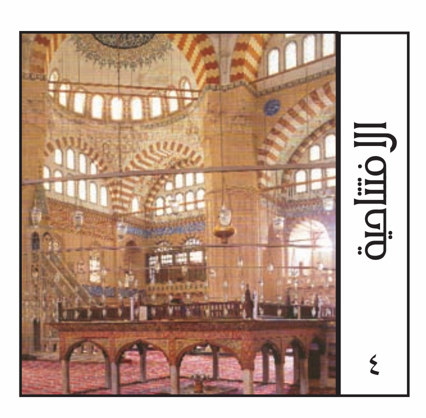
الإخراج الفني
أسيد إحسان الصالحي

عنوان المراسلة
Kaynak Publishing Group
Emniyet Mah. Huzur Sok. No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163185314
e-mail: info @ hiramagazine.com

الإشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – حي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤+
المحمول: ٢٠١٢٣٧٨٥١٩٢+
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

الطباعة
International printing house
P.O BOX 312
Public Free Zone, Nasr city
Tel: 02022740740
Heliopolis - Cairo
Egypt

رقم الإيداع
١٣٠٦-١٨٧٩



الافتتاحية ٤



علم النفس ١٨



أدب ٣٦



علوم ٥٤

كلمة التحرير

مع شهر القرآن نبدأ

بسم الله نستهل مسيرتنا. . . كان «الإنسان» ما قبل «حراء» عائمًا في خواء روحي رهيب، ذاهلاً عن نفسه، مجدبَ الجوانب، ممحل الوجود، خامد الجذوة، مقفر الروح، طافيًا على سطح الحياة غير معني بجوهرها؛ إنه لا يحيا إنما يعيش، حتى لكأن حياته خلو عن الحياة، فأسلمه ذلك كله إلى نوع من الشلل العقلي والروحي.

وفجأةً وفي لحظة زمنية هي أضوأُ لحظات الزمن، تحرك التاريخ سراعاً ليأتي «حراء» ويقف على بابه، منتظراً خروج الرجل المتحنث فيه، ليضع بين يديه روح الإنسان وعقله ويأتمنه عليهما. ولم يكن الرجل غير محمد صلّى الله عليه وسلم، ذاك الأمين المصطفى المختار الذي لم يجد الحقُّ أطهرَ من قلبه ليتنـزل عليه ويقيم فيه. ومنذ تلك اللحظة الوضاءة في جبين البشرية، تجرد «حراء» من مكانيته وزمانيته، وغدا روحاً عظيماً محلقاً فوق الزمان والمكان، فخالط دم كل مسلم وسرى في وجدان كل مؤمن.

إنَّ الآيات التي استهلَّ القرآنُ نزولَهُ بها في غار «حراء» رسمت المنحى الفكري والروحي للمسلم كما يريده الله سبحانه وتعالى. فـ«اقرأ» هذا الأمر الإلهي يعطي دفعة قوية للكسل الذهني، ويستفزُّ العقل لكي يقرأ ويتدبر.

فالإنسان إذا شئنا أن نصفه بكلمة واحدة لقلنا إنه «مخلوق قارئ». فالأمر الإلهي شامل لكل أنواع القراءات؛ فللقرآن قراءة، وللسنة قراءة، وللكون والطبيعة قراءة، وللتاريخ قراءة، وللنفس الإنسانية قراءة، ولكل ما يتحسسه الإنسان بحواسه الخمس قراءة، وإنْ لم يفعل أصيب بالعسر العقلي وتبلد إحساسه وشعوره.

فالكون والكائنات كتاب مفتوح سطره قلم القدرة، غير أنه مكتنف بالكثير من الغوامض والأسرار. وعلى الإنسان أن يستوحي قلم القدرة فيما يكتب، وأنْ يسعى لفتح أبواب تلك الأغوار السحيقة من المعميات. فإنشاء الأفكار وبناء صروح المعارف من مهمات هذا القلم الذي ربما يستطيع أن يهيمن في وقت ما على ثقافات العصر.

إنَّ كثيراً من الغشاوات التي تمنعنا من الرؤية العميقة النافذة تنتظر هذا القلم القدير لكي يزيحها عن أعيننا لنرى بشكل أوضح وأعمّ وأشمل. ولهذا أقسم ربُّ العزة بالقلم في أمكنة أخرى من القرآن، وعَلَّمَهُ الانسانَ. وكل قلم بيد الإنسان هو ظلٌّ من ظلال قلم القدرة، وقبس من أقباسه، ومن هنا تقدس القلم، وعَظُمَ مَن يمسك به، ومن هنا كذلك يجيء احترامنا وانحناؤنا للأقلام النـزيهة الملتزمة بالحق والحقيقة.

ولهذه الإيحاءات الروحية والفكرية التي يستثيرها اسم «حراء» في ذهن المسلم ووجدانه، ارتأينا أن يكون «حراء» اسماً لمجلتنا، نستوحي منه –كُتَّاباً وَقُراءً– المعاني العظيمة في رسم الطريق إلى المعرفة الإيمانية التي نريدها لمسلم هذا اليوم. وهذه المعرفة –كما نرى– لا تستوي على عرشها، ولا تؤتي ثمارها إلا إذا قامت على القرآن والكون والإنسان. فالإنسان المسلم كوني لا يكبح تطلعه، ومعرفي لا يقف عند حدّ، وقرآني الكينونة والوجود؛ فهو بين العقول صاحب العقل الأرقى وبين الفهوم صاحب الفهم الأوسع، وبين المدركات صاحب المدرك الأعم والأشمل. وهذا هو ما تسعى هذه المجلة أن تكرس نفسها له، وهو ما نحب من أصحاب الأقلام أن يعينونا عليه. وقد حاولنا –جهد المستطاع– في مستهل هذا العدد الأول من المجلة أنْ نختار من المقالات والأبحاث ما يتفق مع خطة المجلة وأهدافها المذكورة آنفاً، وقد شاء الله أن يكون عددنا الأول في شهر رمضان المبارك، شهر حراء شهر القرآن، فنسأل الله السداد والتوفيق.

والله تعالى من وراء القصد.



العدد الأول السنة الأولى

(أكتوبر–نوفمبر–ديسمبر) ٢٠٠٥

شهر رمضان المبارك ١٤٢٦

التصور العام

* حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
* تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
* تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
* تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

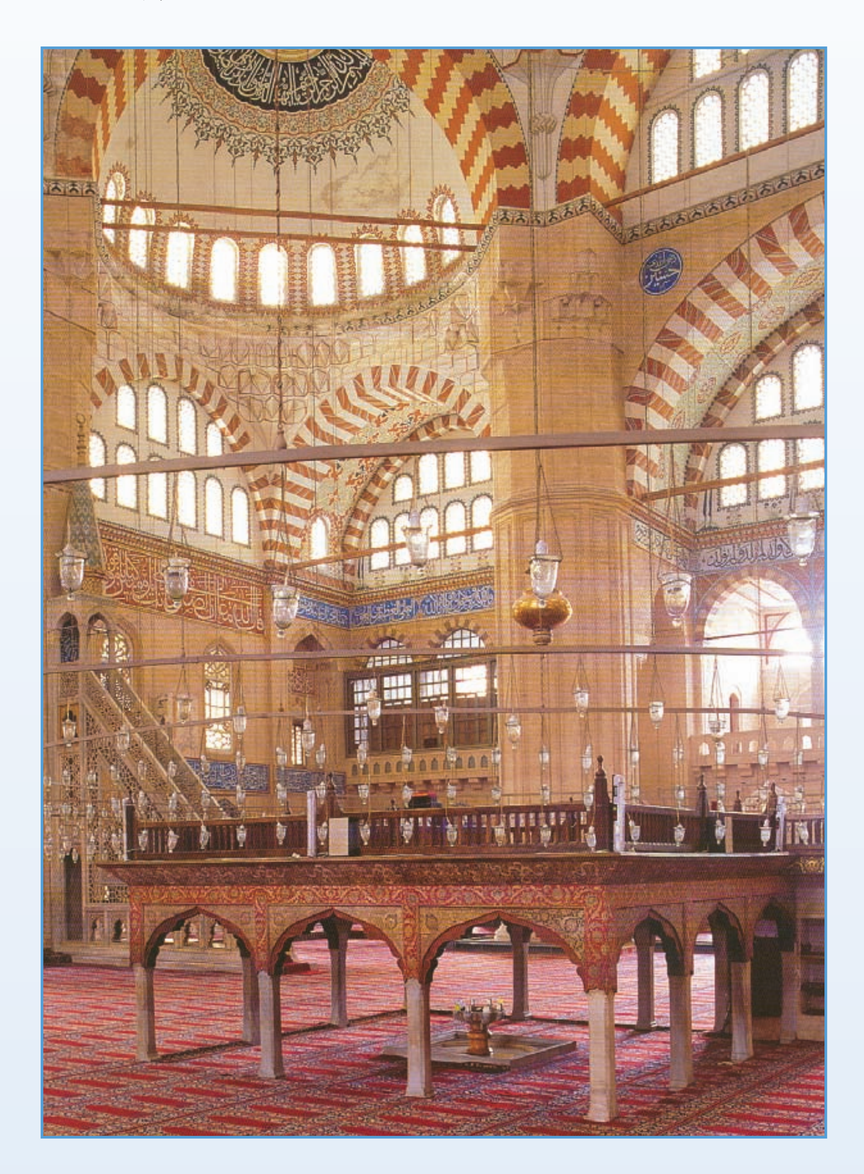
شروط النشر

* أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
* ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
* يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
* تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
* المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
* تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
* النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
* للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
* مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
* يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان التالي:

hira@hiramagazine.com

سعر النسخة: مصر (١٠) جنيهات. المغرب (١٥) درهماً. الأردن (١,٥) دينار. الإمارات (١٠) دراهم. البحرين (١) دينار. السعودية (١٠) ريالات. سلطنة عُمان (١) ريال. السودان (٣٥٠) دينار. قطر (١٠) ريالات. الكويت (١) دينار. ليبيا (٢) دينار. الجزائر (١٥٠) دينار. سوريا (١٠٠) ليرة. لبنان (٣٠٠٠) ليرة. تونس (٢,٥) دينار. اليمن (٣٥٠) ريال. العراق (٢٠٠٠) دينار. تركيا (٤) ليرة. أوروبا وأمريكا (٤) دولار.

تأملات حول العيد



م. فتح الله كولن

الأشهر المباركة التي تتقدم على رمضان وتبشرنا بإشراقه هي بمثابة مؤشرات وعلامات صامتة وهادئة على قدوم أيام مباركة وظهور بشائرها في الأفق. . . أيام مليئة بفيوضات تقبل كالسيل الهادر وتحتضن القلوب. ومع اليوم الأول من هذه الأشهر المباركة يحس صاحب كل قلب مؤمن أنه مغمور في جو رمضان. فتجده من اليوم الأول مستعرضا جميع مشاعره المتعلقة بعبوديته مدققا لها لكي يستفيد من بركة الشهر الكريم الذي أصبح منه قاب قوسين أو أدنى حق الاستفادة ويستثمره حق الاستثمار. فكأنه نهض من غفوة فأثَر النعاس لا يزال في عينيه، وكلمات من بقايا حلم على لسانه، فيستجمع جهده لتركيز انتباهه وتجميعه حول هذا الموضوع، وتصيّد النغمة القدسية المتآلفة مع هذا التوجه ومع هذا القصد.

عندما تمتلئ القلوب بالمشاعر، وتبلغ الأرواح قوامها، يولد شهر

رمضان من رحم الهلال، ولكن بقوة ضياء البدر من خلف البشائر المتعاقبة لهذه الأيام. ويهبّ كألطف نسيم، ويحيط بقلوبنا ويلاطف أرواحنا وأجسادنا برقّة الحرير، ويملأ أعيننا بصور الجمال الشبيهة بجمال سفوح الربيع، ويثير في أفئدتنا رغبة التسامي، ويدع في صدورنا انتفاضة حلوة كانتفاضة عصفور بلّله القطر.

وأخيرا تنتهي هذه الضيافة التي تدوم شهرا، ويودعنا شهر رمضان الذي قدم بعطاياه الكثيرة... يودعنا ولكن الأرواح التي وصلت إلى حياة جديدة والتي اقتبست من نوره، والقلوب التي استغرقت خلاله في التأمل والتفكر، والتي ارتجفت من خشية الله، والقلوب الهائمة التي خرجت تبحث عن مسالك وطرق الوصال؛ تحتضن بدفء أيام العيد هذه المرة. وكما يرى الإنسان المبحر بعد قليل أن المياه تحيط به من كل الجوانب، نجد أنفسنا في العيد بعد انقضاء الأشهر الحرم الثلاثة في جو من الاطمئنان والسكينة... نحس هذا في أعماقنا، وبكل كياننا، وبكل ماهيتنا الإنسانية.

تبدو صلوات العيد وأصوات التهليل والتكبير وصدقات الفطر لأصحاب القلوب المؤمنة كمنافذ إلى عالم خيالي رائع، فينطلقون كقوارب أطلقت أشرعتها للرياح. أجل، إن الجو العام في العيد، والسحر الذي يحيط به وبكل التصرفات والأصوات والحديث يجعل الإنسان يشعر وكأنه يرتفع نحو السماء ببطء ويبتعد عن محله ومكانه الذي انطلق منه، ويعيش في مثل هذا الجو الساحر الذي تنهمر فيه الأضواء والأنوار.

في العيد نعيش الماضي والحاضر والمستقبل معا. يهيأ إلينا وكأن هناك سحرا غريبا في الأصوات المرتفعة من المعابد وفي المنازل التي نزورها وفي الأيدي المباركة التي نقبلها... سحرا ما أن نلمسها حتى تتفتح أمامنا منافذ عديدة للماضي. فنجد أنفسنا داخل مسجد قديم نجلس في صف واحد مع أجدادنا وأجداد أجدادنا. وحينما تلتقي شفاهنا بالأيدي الطاهرة نشعر وكأننا قد قبّلنا مئات الأيادي المباركة فننتشي بفرحة غامرة. وعندما نهنّئ أصدقاءنا وأحبابنا ونضمهم إلى صدورنا نحس وكأننا نضم أحبابنا الذين عاشوا قبلنا وقبل هؤلاء في عهود سابقة. كل حركة في العيد وكل فكر وكل تصور وكل كلمة أو حديث وكل تصرف يبعث شريطا زمنيا من أشرطة الماضي، ويحيا ويحيط بكياننا، ويملأ أفقنا، ويصبح ملْكنا، ويهب –حسب درجة ووسعة خيال كل منا– أنموذجا للبعث بعد الموت.

الأعياد في الحقيقة ترانيم قادمة إلينا من أمجاد أجدادنا ومن جذورنا المباركة. بسحر هذه الترانيم نصل في كثير من الأحيان إلى عوالم ما كنا لنصل إليها من قبل، إذ ندخل إلى كل مكان بسهولة الأحلام، ونتجول في كل الأماكن بسرعة الخيال طاوين الزمان الذي نعيشه بأزمنة متداخلة بعضها في بعض. أجل، إن الماضي يعود إلينا بكل مجده السابق بدرجة تعايشنا مع سحر شهر رمضان، ويعود كل ما فقدناه من قبل، ونتنفس من جديد رائحة تلك الأيام النقية ونستنشقها بعشق لتمتلئ بها صدورنا، ونرتشف من الينابيع الفياضة الماضية، فنحسب أنفسنا في عالم آخر. وقد يبلغ بنا الاستغراق مبلغا نخال وكأن جميع من في القبور قد بُعثوا، وكل شيء ممزق ومبعثر هنا وهناك أشلاء قد تجمع وتوحد من جديد، ويرجع شتات الزمن الذي انقضى من أعمارنا ليحتضن أرواحنا، ونعيش –بجانب ما نعيشه اليوم وما عشناه بالأمس في أعمق الأذواق وأوسعها– في ذكريات لذائذ روحية ساحرة، حتى إن عناصر اللذة والأذواق في هذه النقطة –كما هي في الأحلام– تكون متغيرة على الدوام حسب نياتنا وأفكارنا وميولنا، وتتجدد على الدوام حسب رغباتنا، وتلبس الحال التي نريدها، وبينما كانت هناك رغبة واحدة إذا بها تنقلب إلى ألف. فكل ما شاهدناه وكل ما سمعناه وكل ما أحسسنا به نراه يتغير –بفضل سحر خارق– من شكل إلى شكل. وبذلك نديم حياتنا بتلونات عديدة من حس لحس، ومن فكر لفكر ومن لذة للذة أخرى.

عندما ينشق فجر يوم العيد تنطلق أصوات التسبيح والتمجيد من المآذن، وفي الدقائق التي يبلغ الجو الروحاني الذروة في كل مكان نشعر بأحاسيس غامضة وسرية تثير خيالنا وتأخذنا إلى الأعماق، بل إلى أعماق الأعماق، وتهمس لقلوبنا بمشاعر لم يفصح عنها من قبل، ولا يمكن بحال من الأحوال التعبير عنها بأي كلمات ولا بأي لغة.

عندما ينشق فجر يوم العيد تنطلق أصوات التسبيح والتمجيد من المآذن، وفي الدقائق التي يبلغ الجو الروحاني الذروة في كل مكان نشعر بأحاسيس غامضة وسرية تثير خيالنا وتأخذنا إلى الأعماق، بل إلى أعماق

الأعماق، وتهمس لقلوبنا بمشاعر لم يفصح عنها من قبل، ولا يمكن بحال من الأحوال التعبير عنها بأي كلمات ولا بأي لغة.

أجل!.. إن نغمة وصوت الأذان عندنا، النابع من عواطف وأفكار الموسيقيين السابقين الكبار أمثال «العِطْري» و«دَدَه أفنْدي»، وأصوات التكبير والتمجيد والتهليل وأسلوبها وطعمها وجمالها، هو اللسان الخاص لهذه الأمة، ولغتها ذات الأبعاد المتنوعة الكثيرة السارية في عروقها. هذه الموسيقى التي تهز عواطفنا وتعبر عن مشاعرنا كأنها نغمات تهبّ على أرواحنا من آفاق ما وراء الزمن.

المؤذن بهتافه المتلاحق وكأنه يصدر أوامر، والإمام الذي يرتجف صوته ويئن بكلمات سماوية، وجماعة المصلين الذين يهدرون معا مثل أوركسترا... كل هذا يجري بدرجة من الأصالة والمهابة ويبعث القشعريرة في الأجساد. وعندما نتمتم بهذه الأصوات المرتفعة من المعابد ونهمس بها نحس من جديد بماض طويل مجيد، بل أكثر من هذا بحقيقة عالمية شاملة، ونظرة تمتد من الأزل إلى الأبد، فنغرق في جو من السعادة.

إن المعبد –ولا سيما في أيام العيد– يمثل بجوّه الرقيق الناعم كالحرير، والدافئ دفء عش الطير، والمملوء حيوية... يمثل صفاء المشاعر، وراحة الوجود والاطمئنان، وغاية العيش، ومغامرة الحياة، وجذور المعاني لأمّتنا، وأسس ثقافتنا وخلود ديننا، وموسيقى لغتنا، ونظرتنا للحياة، ورأينا في الدنيا وأسلوبنا ولهجتنا، ويهمس لنا ليرينا الطرق المؤدية إلى الإنسان الحقيقي.

إننا نشعر على الدوام بهذه الأصوات التي تتردد في جوانب المعبد، ونجد في هذه الأصوات الدافئة انحناء السماء نحو الأرض، وتكامل الأرض مع السماء، وغمز النجوم لزهور الأرض وورودها، وبسمة الورود لأهل السماء، ونحس بالتواصل السري والسحري الدائم بين السماء والأرض ونكاد نراه رأي العين.

هذا الصوت وهذا المنظر وهذا الهمس الذي ينقل كل شخص –حسب قابلية روحه وعمق خياله– إلى عالم آخر يبعث في القلوب المؤمنة صورا رائعة من الجمال ترتعش لها الأفئدة وترق لها العواطف. وعندما تنتهي الصلاة وتختتم السياحة السماوية، ويودع المسجد مؤقتا، يعود الإنسان إلى الناس من جديد كأنه آتٍ من ضيافة الرحمن بعد أن اكتسب بُعدا وعمقا جديدين، ويحتضنهم ويبادلهم التهاني، ويتقاسم مع كل من يصادفه في السوق والشارع، وفي البيت ومكان العمل، وفي المدرسة والمعسكر هذه الهبات والأعطيات التي أخذها واستلمها وامتلأ بها. وهكذا تكتسب أجزاء الزمان المحدودة ضمن بضع ساعات، بدرجة سعة القلب وعلو الروح، صفة فوق الزمان، فكأنه اكتسب خلودا. ويتوضح لدى الإنسان كيف أنه وهو في الدنيا قد أسس علاقات عميقة مع الأبدية وما وراء هذا العالم.

وعندما تنتهي الصلاة وتختتم السياحة السماوية، ويودع المسجد مؤقتا، يعود الإنسان إلى الناس من جديد كأنه آتٍ من ضيافة الرحمن بعد أن اكتسب بُعدا وعمقا جديدين، ويحتضنهم ويبادلهم التهاني، ويتقاسم مع كل من يصادفه في السوق والشارع، وفي البيت ومكان العمل، وفي المدرسة والمعسكر هذه الهبات والأعطيات التي أخذها واستلمها وامتلأ بها.

ولا أدري كيف كان من الممكن وما الزمان المطلوب أو النظام الذي يمكن الاستعانة به لكي يحس المسلمون صغيرهم وكبيرهم بكل هذه المشاعر وهذه الأحاسيس والخيالات، وبكل هذه العواطف المتأججة، وتنعكس كل هذه الأصداء في أرواحهم، لو استعانوا بطرق أخرى أو سبل غير هذه السبيل. وأنا لا أعتقد إمكانية هذا الأمر ولا نجاحه في الوصول إلى كل هذه الروحانية الشفافة. لأن بهجة الأعياد وفرحتها وسعادتها ولذّتها لا تنبع فقط من هذه الحياة المعاشة، بل من أبعاد الحياة التي سوف نحياها في دار العقبى. فكل من يعش في خيال البرج العاجي لقلبه، يلقه هناك سحر سيحسّه وسيذوقه في المستقبل إلى جانب ما ذاقه اليوم. ويتجول في عالم رؤى المستقبل الأكيدة التي تبدو لعالمه الداخلي أكثر ملاءمة ودفئا ونعومة. والإنسان في الحقيقة مجبول على التطلع والانتظار، يقضي معظم عمره في انتظار عوالم الأمل وأخيلته. ومعظمنا في انتظار جنة مرتبطة بمعنى لصيق بماهيتنا وذاتنا. وليس هذا الانتظار نابعاً عن عدم استحساننا أو عدم قبولنا ورضانا عن الحياة التي نعيشها، بل انتظار لمفاجآت إلهية لا تستوعبها خيالاتنا كَبَشَر، ولا خطرت ببالنا، ولا على أسماعنا، ولم نذقها. والأعياد ألسنةٌ بليغة تهمس بصواب هذا الأمر من منافذ قلوبنا إلى أعماق أرواحنا.

من فهم القرآن حق الفهم تصبح البحار الواسعة كقطرة ماء أمام ما يرد إلى صدره من إلهام. من يصله صوت القرآن دبت فيه الحياة وكأنه سمع صور إسرافيل. والقلب الذي يصغي إلى معانيه يتوثب حركة وكأنه سمع نغمات جبريل.



ظاهرتان تبعثان على الدّهشة في كتاب الله عزّ وجلّ

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي *

إن للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله سياحة واسعة وعميقة في خضم القرآن وبحره. بل إن رسائله كلها، المعروفة برسائل النور، إنما كان يستبينها على ضوء القرآن ويستوحي حقائقها من نوره.

وإنك لتنظر فتجد أن الحقائق التي استخرجها رحمه الله من كنوز هذا الكتاب الرباني المبين، كثيرة ومتنوعة شتى، تتصل بسائر المعارف والعلوم والثقافات والفلسفات على اختلافها.

ولقد وجدتني من هذه الحقائق التي يستخرجها رحمه الله ويجلّيها من كتاب الله عز وجل، أمام فيض كبير بعثني على الحيرة فيما ينبغي أن أختاره منها، لأجعل منه متناً أشرحه أو شرحاً أهمش عليه

وأزيــده جلاء أمام بصائر الباحثين والمتدبريــن.

غير أني تحررت من هذه الحيرة عندما قررت أن أنتقي من هذه الحقائق القرآنية الكثيرة التي يستخرجها ويلفت النظر إليها، تلك التي لم يُسبق إلى بيانها من قبل، أو تلك التي كان نصيبها من الدراسة والبحث لدى العلماء والباحثين المتقدمين مقتضباً أو غير ناضج ومتكامل.

ولقد وقعت من هذا الذي بحثت عنه على حقيقتين قرآنيتين هما من الأهمية بمكان:

أولاهما جديدة على سمع الدارسين والباحثين، لا أعلم أن في السابقين من العلماء والباحثين من تنبه ولفت النظر إليها.

والثانية نالت كلاماً مقتضباً من بعض الباحثين السابقين الذين عكفوا على دراسة علوم القرآن وجوانب الإعجاز فيه، ولكن يعوزه مزيد من البيان والدعم بالأدلة والبراهين. **

وها أنا أضع أمامكم ما يقوله رحمه الله في بيان كل منهما، بنصه مترجماً إلى اللغة العربية. ثم أجعل منه، كما قلت، متناً أشرحه بما يزيده جلاء، وبما يكشف عن مصداقه في واقع عصرنا اليوم وفي بحوث الكاتبين اليوم على اختلاف مشاربهم وتنوع عقائدهم من مؤمنين وجاحدين.

الحقيقة الأولى: تلك التي يسميها محافظة القرآن على التوازن الموجود بين الحقائق الإلهية السامية كلها. يقول في بيان هذه الحقيقة بأن هذه المحافظة والموازنة والجمع، خاصية لا توجد قطعاً في أي أثر من آثار البشر، ولا في نتاج أفكار أعاظم المفكرين كافة، ولا توجد قط في آثار الأولياء الصالحين، ولا في كتب الإشراقيين الموغلين في بواطن الأمور، بل كل فريق من أولئك قد تشبث بغصن أو غصنين فحسب، من أغصان الشجرة العظمى للحقيقة، فانشغل كلياً مع ثمرة ذلك الغصن وورقه، دون أن يلتفت إلى غيره من الأغصان، إما لجهله به أو لعدم التفاته إليه، وكأن هناك نوعاً من تقسيم الأعمال بقصد الاختصاص فيما بينهم.

نعم، إن الحقيقة المطلقة لا تحيط بها أفكار محدودة مقيدة. إذ لا بدّ لها من نظر كلّي كنظر القرآن الكريم ليحيط بها. فكل ما سوى القرآن الكريم، لا يرى تماماً بعقله الجزئي المحدود إلا طرفاً أو طرفين من الحقيقة الكلية، فينهمك بذلك الجانب ويعكف عليه وينحصر فيه، فيخلّ ذلك بالموازنة التي بين الحقائق، ويزيل تناسقها إما بالإفراط أو التفريط.

ثم يضرب الأستاذ رحمه الله المثل لذلك بكنز عظيم يحوي جواهر شتى عثر عليه الغواصون في قعر أحد البحار، ونظراً إلى أن كل واحد منهم تعرّف على جانب صغير من ذلك الكنز الواسع الكبير، منفصلاً عن الجوانب الأخرى منه، فقد تخالفت بل تناقضت تصوراتهم له. ثم يقول: «فالقرآن الكريم الذي هو بحر الحقائق، آياته الجليلة غواصة كذلك في البحر تكشف عن الكنز، إلا أن عيونها (أيْ عيون الآيات القرآنية) مفتحة ببصيرة تحيط بالكنز كله وتبصر كل ما فيه».

أعتقد أن هذه الحقيقة العظمى التي يلفت بديع الزمان بصائرنا إليها في هذه السطور، تحتاج إلى شيء من الشرح والبسط، لا سيما وقد تجلى مصداق هذا الذي يقوله الأستاذ تماماً، في الحيرة البالغة التي غدت اليوم جامعاً مشتركاً لدى سائر العلماء الغربيين بل سائر الباحثين الشاردين عن هدي القرآن وضيائه، تجلى في اعترافات متكررة ظهرت في ثنايا كتاباتهم أو محاوراتهم، كما سنجد بعد قليل.

اسمحوا لي إذن، أن أشرح هذا الكلام الجامع المركز، وأبسطه في البيان التالي:

كثيرون هم الذين يتصورون أن هذا الكون الذي نعيش فيه، يغور بحقائق متنوعة شتى. والواقع أن هذا التصور وهمٌ باطل، فالكون لا يحتضن أكثر من حقيقة واحدة. وإنما المتعدد والمتنوع أجنحة هذه الحقيقة وزواياها.

أي إن الذي ينصرف إلى دراسة الأنواء والفلك، والذي يعكف على دراسة طبقات الأرض، والذي يتتبع علوم الحياة الحيوانية، والذي يختار دراسة التاريخ أو التاريخ الطبيعي، والذي يتفرغ لدراسة علم النفس والفلسفة والأخلاق... كل هؤلاء إنما يتفرقون في جوانب شتى من جسم الحقيقة الكونية الواحدة. ولكن عظم هذه الحقيقة بما لها من جوانب وجهات مترامية الأطراف، يخيل لكثير من الناس بمن فيهم كثير من المثقفين والعلماء المتخصصين أنها حقائق علمية متعددة ومستقلة بعضها عن بعض. لذا يجيز كل منهم لنفسه أن لا يُعنى بما انصرف إليه الآخرون، وأن يحصر همه في دنيا الحقيقة المستقلة التي تخيلها.

ومن هنا تأتي معلومات هؤلاء الناس عنها مبتورة، لا بل مضلّلة أيضاً، ثم إنها لا تروي لهم ظمأ ولا تشبع لهم تطلعاً، بل تزيدهم في شأنها حيرة واضطراباً، لأنهم كلما ازدادوا فيها تعمقاً فاجأتهم منها عروق وخيوط تتجاوز بهم دائرة بحثهم ومجال دراستهم، وكلما تتبعوا منها مجهولاً أسلمهم إلى نطاق أوسع وخيوط أكثر تشابكاً وتعقيداً.

إن هذه المعارف الجزئية التي تبدو حقائق مستقلة بعضها عن بعض داخل هذا البنيان الكوني المتماسك، أشبه ما تكون بفصول متعددة

كثيرة من كتاب كبير ذي موضوع علمي واحد. فماذا عسى يفيد من وقع على أحد فصوله تلك، ثم عكف على دراسته في تأمل ودقة؟ بل ماذا عسى أن يفقه منه من درس فصوله كلها، ولكن على غير ترتيب وتناسق، ودون الرجوع إلى أي رابطة بين الواحد منها والآخر؟! من الثابت يقيناً أن هذا الإنسان لن يعود من دراسته تلك، مهما كانت دقيقة معمقة، إلا بمفاهيم مهشمة ومعارف مبتورة. وهي في مجموعها ليست إلا لوناً من أسوأ ألوان الجهل المركب وإن بدا أنها معلومات جزئية صحيحة.

فكذلك هذا الكون، إنه كتاب علمي واحد، ذو فصول مترابطة ومتناسقة شتى، وإن بدت لدى النظرة العجلى أنها مستقلة متباعدة من بعضها.

وآية هذا الذي أبرزه بديع الزمان في كلماته مركزاً موجزاً، ونحاول أن نحلّله وأن نبسطه هنا مشروحاً مبيناً، ما نعرفه جميعاً من أن جلّ العلماء والفلاسفة الذين ملأت أسماؤهم وشهرتهم الدنيا، عادوا في أيامهم الأخيرة يشكون الجهل وينشدون المعرفة ويتبرمون بالحيرة ويعانون من الاضطراب.

لقد رأينا «برتراند رسل» يشكو فيما يقصه علينا من سيرته الذاتية، أنه على الرغم من كونه حقق كثيراً مما كان يحلم به ويسعى للوصول إليه، ومن ذلك الحب والسلام، إلاّ أنه لم يعد من سعيه وراء أمنيته الأولى، وهي المعرفة، إلا بأوكس الحظوظ.

كما رأينا من قبله «أنشتاين» –وهو الذي ابتدع نظرية النسبية وحدد قوانين الفضاء والزمن والجاذبية– يشكو المعضلة ذاتها، ويعلن لصديقه الكاتب الأمريكي «جورج فيرك» أن معلوماته التي جمعها عن الكون لم تستطع أن تقدم له إلا لغزاً مقفلاً يستعصي على الحلّ. قال له ذلك عندما سأله «جورج فيرك» عن الموت، فقال: لا أدري!!.

ويعبر «أنجلز» في كتابه «أنتى دوهرنغ» عن حيرته في قضايا الكون بكلام طويل، يقول فيه: «كم هي زهيدة معرفتنا بأصل الكريات الدموية..! وكثيراً ما تحدث بعض الاكتشافات، كاكتشاف الخلية مثلاً فتضطرنا إلى مراجعة كاملة لسائر الحقائق الأخيرة والنهائية المقررة من قبل، في مجال علم الحياة، وإلى وضع أكوام كاملة منها في سلة المهملات دفعة واحدة..!». ثم يضيف فيقول: «وإن الحقائق الأبدية تعاني مأزقاً أشد حراجة من ذلك في المجموعة الثالثة من العلوم، وهي المجموعة التاريخية. وهكذا فإن معرفتنا في مجال التاريخ الإنساني لأشدّ تخلّفاً أيضاً منها في ميدان علم الحياة. وأغلب الظن أن الذين سيأتون من بعدنا سيصححون معارفنا أكثر مما يفيدون منها».

بل إني لعلى يقين بأن ظهور المذاهب الفلسفية المتطرفة، من مثالية ووجودية وذرائعية ونحوها، ليس إلا ثمرة اضطراب نتج عن معرفة مقطعة مجزّأة عن تصور الهيكل الكلي لهذا الوجود، هذا مع افتراض أنها جاءت معارف جزئية صحيحة.

إذن، فالمعرفة لا تكون صحيحة بحيث تقنع العقل وتطمئن إليها النفس، إلا إن جاءت على أعقاب معرفة كلية شاملة تحيط بين بنيان هذا الوجود كله، متمثلاً في كل من الإنسان والكون والحياة ووجه العلاقة السارية فيما بينها. وليس المهم في هذه المعرفة الكلية أن تكون عميقة دقيقة، لاسيما في بادئ أمرها. إنما المهم جداً أن تكون صحيحة وشاملة.

وأذكركم في هذا الصدد بالقاعدة العلمية التي يجب أن تسترعي انتباهنا، كبرهان على ما نقول، وهي أن دراسة ٢٠٪ من كتلة ذات أجزاء متراكبة، ليس من شأنها أن تؤدي بالضرورة إلى معرفة صحيحة لـ ٢٠٪ من حقائق تلك الكتلة. بل إن مثل هذه الدراسة لا تؤدي حتى إلى معرفة ١٪ من تلك الحقائق على وجه صحيح، أو قد توصل إلى تصورات مشوشة عن مجمل تلك الكتلة. ولا عبرة بما قد يعود به هذا الباحث من أوهام يحسبها معارف وعلوماً، وإلاّ فأخبرني كم هي نسبة المعارف الصحيحة التي يعود بها ذاك الذي أقبل إلى خارطة، فوضع منظاراً مكبراً على رقعة منها، ثم راح يحصر نظره وفكره في دائرة ذلك المنظار، ويتأمل في الألوان الساطعة والخطوط الكبيرة التي تحت عينيه، أي قبل أن يتعرف على الخارطة بمجموعها الكلي وقبل أن يتبين خطوط الطول والعرض فيها؟! نعم إنه قد يعود من ذلك بما يسمى في اللغة معرفة، عندما يدرك الألوان على حقيقتها، ويقرأ أسماء المدن التي تبدو تحت منظاره قراءة صحيحة، ويلاحظ تعاريج الخطوط ما هي، ولكنها تسمى في هذا المقام معرفة ميتة، إذ لا صلة لها بشيء من المعارف التي تتضمنها تلك الخارطة في مجموعها الكلي.

فتلك هي حقيقة المعارف التي يعود بها من قد حصر فكره من بيان هذا الوجود الكوني في زاوية من زواياه أو جزء من أجزائه. إنها بكل تأكيد معارف ميتة، لا صلة لها بشيء مما توحي به المجموعة الكونية كلها من المعارف والمعلومات. وهي لذلك أعجز من أن تمدّ صاحبها بشيء مما ينشده الباحث من طمأنينة اليقين العلمي.

والآن، ما السبل إلى هذه المعرفة الكلية الشاملة؟ وبتعبير آخر، أين يمكن العثور على تلك الخارطة التي تصور لنا المنظور الشامل لبنيان هذا الهيكل الكوني كله، وتكشف لنا نوع العلاقة السارية بين جوانبه وأركانه الكبرى؟

من الثابت يقيناً أننا لن نعثر على هذه الخارطة إلا في القرآن، كما يؤكد بديع الزمان رحمه الله. بل هي المهمة الأساسية الكبرى التي

تنزل القرآن من أجلها، والتي يتوقف عليها تعرف الإنسان على ذاته وإمكان نهوضه بالمسؤوليات التي كلف بها وخلق من أجلها.

وبوسعنا جميعاً أن نعلم بأن القرآن لو لم يكن كلام صانع هذا الكون ذاته، لما أمكن أن يحوي بين دفتيه الصورة الكاملة الشاملة لوحدة هذه المصنوعات المترابطة والمتشابكة في تناسق عجيب.

فمن عكف على دراسة القرآن بتدبر وتجرد وإمعان، وجد أن هذا الكتاب يبدأ فيعرّف الإنسان على ذاته وخصائصه ومهامّه في هذه الدنيا التي خلق فيها. ثم يعرّفه على حياته التي يتمتع بها وعلى ما فيها من جوانب التفاهة والأهمية معاً، ويبصّره بمبدئها ومنتهاها، وعلاقتها بما وراءها، ثم يعرّفه على المظاهر الكونية التي تموج من حوله وعلى صلة ما بينه وبينها بشكل شمولي وإجمالي، وهو ينبهه من خلال ذلك إلى ما في تلك المظاهر من السنن الراسخة التي لا تخضع لأي تطوير أو تغيير، وإلى ما فيها من الرموز المتطورة المسخرة لمصالح الإنسان.

وتلك هي العناصر والأركان الكلية الكبرى لبنيان هذا الوجود: الإنسان، الحياة، الكون، أي سائر المكونات الأخرى، وإذن فتلك هي ينابيع المعرفة كلها.

وهكذا يتمثل الهيكل الكوني أمام بصيرة الإنسان، من خلال تدبّره لهذا الكتاب الرباني العجيب، كما تتمثل شجرة باسقة عظيمة أمامك، عندما تنظر إليها على أرض مستوية ليس بينك وبينها أي حجاب أو سحاب، فهي جلية أمام العين في هيكلها وفي ضخامة جذعها واتساع فروعها، وفيما تحمله من ثمر بين أوراقها.

فإذا أقبل الإنسان بعد هذه المعرفة الشمولية الكلية التي استقاها من القرآن إلى يمّ هذا الوجود الكوني، يتعمق في فهم ما يشاء فهمه من الجوانب والأجزاء التي يجب أن يتعمق في معرفتها وأن يتخصص بدراستها، فإنه لن يضيع عندئذ في المتاهات، ولن تخدعه ألوان الطيف المتكسّرة التي كانت تنبعث من جراء انحصار النظر في زوايا ضيقة ومقطعة بعضها عن بعض، بل سيكون له من الاعتماد على تلك الخارطة الشاملة التي انطبعت في بصيرته، ما يردّه عن كل ضلالة ويبعده عن كل خدعة. ولسوف يكون له من ذلك ما ينبهه إلى الرابطة القائمة بين الأجزاء التي قد تبدو متنافرة أو مستقلة بعضها عن بعض.

وهذا هو المقصود بالعلم الذي يظل القرآن ينوّه بأهميته وشرفه في كثير من الآيات. وعن الذين تحلوا بهذه البصيرة العلمية، دون غيرهم، يتحدث القرآن قائلاً: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

أما أولئك الذين شأنهم أن يبدأوا فيضعوا المكبرات الضخمة على رقعة صغيرة، في قلب خارطة كونية كبيرة، ثم أن يحلقوا في تلك الرقعة، وهم عن الخارطة ذاتها غافلون، فهم الذين قال الله عنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الروم: ٧). وقد يخيل إلى أحدنا أن كلمة «ظاهراً» في الآية إنما تعني المدارك السطحية للشيء بالمعنى المتعارف عليه عند الناس، ولكن الحقيقة أن المعرفة السطحية للشيء تتمثل أول ما تتمثل في المعرفة التي يزهى بها من لم يعلم بعدُ حجم ذلك الشيء وحقيقته، وإنما انطلق بادئ ذي بدء يغوص بأجهزته وتأملاته في إحدى زواياه التائهة الضئيلة وسط حجمه الكبير الفسيح.

بقي أن نسأل على أعقاب هذا الكلام الذي يبرز للقرآن دوراً معرفياً لا يغني عنه –كما قال بديع الزمان رحمه الله– أي فلسفة أو فن من فنون المعارف والعلوم على اختلافها: هل بلغك أن واحداً ممن انطلقوا إلى معارفهم الكونية من دراسة كتاب الله أولاً، وقف من الموت أمام لغز كوني محيّر، كما كان من شأن «أنشتاين»؟ أم هل سمعت أن واحداً ممن بدأ فأمعن في الخارطة الكونية التي تتجلى في هذا الكتاب الرباني، زجته معارفه وعلومه عن الدنيا التي يعيش فيها، في مجهلة محيرة أو ظلمات موحشة، كما هو شأن أولئك العلماء أو الفلاسفة الذين انطلقوا إلى سياحاتهم العلمية، بعيداً عن البوابة القرآنية الكبرى التي تبصّر الإنسان بمجمل هذه الكتلة الكونية وعلاقاتها الشمولية العامة؟

أمعن ما شئت في تاريخ العلماء الغابرين أو العلماء المعاصرين، ممن اتخذوا من القرآن منهج معرفة لهم، ومفتاحاً لسياحاتهم الفكرية في أرجاء هذا الكون، فلن تجد فيهم من زجته معارفه في حيرة، أو أقحمته اكتشافاته العلمية في مخافة أو وحشة. والعكس دائماً هو الصحيح، كما قد مثلت لك من قبل.

* جامعة دمشق، كلية الشريعة – سوريا.

** نكتفي بنشر الحقيقة الأولى في هذا العدد.

المصادر

١. الكلمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.

٢. سيرتي الذاتية، لبرتراند رسل.

٣. مجلة العلوم اللبنانية، السنة الرابعة، العدد الثالث.

٤. أنتي دوهرنغ، لأنجلز.



قيثارة البعوضة

أ.د. عرفان يلماز *

«ويين . . . ويين . . . ويين» ها أنذا قد جئتُ . . ! هيا انهض . . . نِمْت كثيراً! إن النوم طوال الليل لا يليق بك، فما أطال النوم عمراً.

فانهض . . ! انهض يا ابن آدم . . ! انهض وفكر . . ! فهل هناك مدعاة للتفكير أحسن مني . . ؟ لا تُؤاخذني إن كُنت قد أَحْمَرْتُ جلدكَ قليلاً أو لَسَعْتك راغبًا، فهذا يحدثُ إلى حد ما . . ! فها أنا ذا أعرض فنوني الرائعة التي منحني ربي إياها لكي أُوقظك من ناحية، ولكي أجعلك تفكر وتمعن الفكر من ناحية أخرى. ماذا يضير لو مَصَصت من دمك رَشْفَةَ لكي أُشْبع نَهَمِي . . ؟ فعلى أي حال فأنت دَوماً تُنْتِج دماً . . . فَرَشْفَة مِنْ دمك من حيوان ضئيل مثلي لن تضيرك في شيء . . !

عزيزي ابن آدم؛

إن رب الكائنات وخالقها قد تفضل في إحدى آيات القرآن الكريم مخاطباً إياك قائلاً:

﴿إِنَّ اللّٰهَ لا يَسْتَحيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللّٰهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٦). كما ترون فإن الله يلفت الأنظار إلى ضعفي وضآلة حَجْمِي وقد عبَّر عن حقيقة كُبرى.

ففي كل مرحلة من مراحل حياتي أمتلك آلات خاصة، وأستخدم من التقنيات ما كل واحدة منها —في حد ذاتها— مُعْجِزَة كُبْرى. لشرحها وتوضيحها بالشكل الكافي لا بد من نسبتها إلى الله تعالى صاحب القدرة والعلم اللامتناهي.

أولاً؛ أود أن أُصحح شهرتي السيئة التي لديكم عني؛ نحن لسنا حيوانات شريرة تمص الدماء طوال حياتنا. كل ما في الأمر أن إناثنا تشعر بالحاجة إلى كمية من الدماء لتغطية البروتينات التي تحتاجها في مراحل وضع البيض. ذكورنا لا تمص الدماء على الإطلاق؛ فَيَكْفيها امتصاص الرحيق الحلو من النباتات. إن إناثنا مُدَانة بسبب الدور الذي تَلْعَبه في حمل ونقل بعض أمراضكم دون وعي منها حين مص الدماء. ولكن يجب أن تتصفوا بالعدل قليلاً وأنتم تدينونها . . !

نحن عائلة تتكون من حوالي ٢٥٠٠ نوعاً. وسط هذا الجمع الغفير يجب ألاَّ نُدان جميعاً بسبب ما يرتكبه البعض منا من تورط في بعض الأعمال القذرة ظاهرياً. كل ما هنالك أن بعض أنواعنا كذلك النوع الذي يُسمى ببعوضة الملاريا (Anophel)، فإن البعض منه يُسبب مرض الحمى، ونوعنا المسمى بَرْغَشَة (Gulex) يُصِيبُ بالفلاريوز (Filaryoz) والإنسفاليته (Ensefalite). كما أن جنس بعوض الحمى الصفراء، فكل ما يفعلونه هم أيضاً، هو رَشْفَة من الدماء لإشباع بطونهم من ناحية وحفظ النوع من ناحية أخرى. من أين لهم أن يَعْلَموا أن الإنسان الذي يمصُّون دمه صحيحاً أم عليلاً؟ وحتى أنتم يا بني البشر، بالرغم من مراقبة البَيْطار في مذابحكم ومجازركم، فإنه يمكن أن تأكلوا اللحوم الملوثة بالجَمْرَة الخَبيثَة أو دَاء الكَلَبْ، وتدفعون بالأجبانِ العَفِنَة المَسْلُولَة إلى الأسواق متسببين في إضرار وإمراض بني جلدتكم.

ولَمَّا كان رفاقنا هؤلاء لا يمكنهم فحص بني البشر الذين

يمتصون دماء بعضهم، فإنهم ينقلون إلى البعض الدماء الملوثة بالميكروبات التي امتصوها من شخص يحمل الفيروس أو الحمى البلازمية. مرة أخرى نحن حيوانات، نتصرف هكذا حسب البرنامج الذي استَوْدَعه ربنا فينا. والحال هكذا... فإن عَمَلِيَّة التَلْويث الميكروبي الذي قام بها رفاقُنا، هذا في الظاهر عَملٌ شرير، لم يكن بمحض إرادتهم. أما الوجه الحقيقي للحادثة فيمكن أن يُبين عن نفسه بنتائج حكيمة للغاية. فإن كنت في الماضي قد صرت سبباً للأوبئة الفتَّاكة، فإن هذه الأمراض كالحمى وغيرها قد تضاءلت بفضل الأدوية التي اكتشفتموها. فإذا لم يبق أي إنسان مَحْمُوم، فكذلك لن يكون هناك احتمال لحملي مِيكُروب الحمى. وبينما أنا أَمص الدماء منكم، فما هي إلاَّ بُرْهَة حتى تشعر أجسادكم بذلك، وترد الصاع بإفراز المضادات الحيوية الواقية من الأمراض. ما أدراكم..! لَمَّا كنت سبباً في الحساسية التي تتولد لديكم، ألم يجعل ذلك نظامكم المناعي متيقظاً..؟ ربما تتوهمون أن هذا ادعاء مني، ولكنكم إن أجريتم أبحاثاً دقيقة في معاملكم ومراكز أبحاثكم فإنكم ستجدون أن لدغاتي هي التي تدفع جهازكم المناعي إلى الحركة. ربما ولكي لا تظهر أمراض أكثر خطورة مثل السرطان، فبسببي ستظل أجهزتكم المناعية في يقظة تامة. إنني على قناعة ويقين بأنكم سوف تصْغُون لتوصية هذا المخلوق البسيط الذي هو عبارة عن أثر فني صغير لربي العظيم، وسوف تُكثِّفون أبحاثكم في هذا الاتجاه. في وقت ما كنتم تشنون هجوماً ضارياً ضد الذباب! وها هي الآن قد أصبحت يَرَقانَاتها وخادِراتها غنغرينة تستخدمونها في علاج الجروح.

منذ قليل وأنا أُدافع عن نفسي، لم أستطع أن أجد الفرصة لكي أتحدث عن الأجهزة الحساسة التي أحملها بين جَنَباتي، بينما أنا معجزة الخالق الحكيم. وإلاَّ فلماذا يتحدث عني ربي في القرآن الكريم..؟ معنى ذلك أنه أراد أن يُعطي لكم بعض الرسائل بذي روح صغير مثلي. كما تعلمون فإن صناعة ساعة كبيرة أسهل كثيراً من صناعة ساعة صغيرة. فإن التروس في الساعة الصغيرة والبراغي وغيرها من القطع لما كانت صغيرة جداً، فإن جمعها وجعلها ساعة تعمل لَمِنْ الأمور الصَّعْبَة. إن السُّهُولة والصُّعُوبة ليست موضوع بحث بالنسبة للخالق جل جلاله، ولكنني أردت فقط بهذا المثال أن أوضح المسألة لكم. الآن أغلقوا أعينكم، وتخيلوا..! فلي أنا أيضاً معدة وأمعاء ومصارين ومخ وقلب وأعضاء وأجهزة إخراج وتفريغ..! وقد جُعِلت هذه الأعضاء خدماً لي، تعمل وتكد بدون أدنى اعتراض. من الطبيعي أن شكل أعضائي وتكوينها وبناءها وعملها يختلف عما هي لديكم. لأن ربنا، لما كان يعلم الوسط الذي سيعيش فيه كل ما يخلقه، لذا فقد منحه الأعضاء الموائمة ونمط الحياة والأغذية المناسبة. وجعل كل ذلك في شكل مثالي. وقد جعل كل ما لدي أيضاً من أجهزة في موضعها الأمثل وخلقها على أكمل وجه.

إن أهم آلاتي هي تلك الخراطيم التي مُنِحتها لكي أُشبع نَهَمي. هذه القطعة التي أُضيفت إلى فمي من أجل مَصِّ الدماء أستخدمها مثل التكون الأرتوازي. إن خُرْطُومي الفاحص هذا قد تشكل من أربع سكاكين حادة ونِصفَي ميزاب، أي أُخدود، وقد استقر داخل غلاف (شكل ١). أحط هذا الخرطوم فوق أَدْمَى مكان من جلدكم بهدف مص الدماء. أَشق الغلاف، أستل سكاكيني، وهي مُصَنَّعة


(الشكل ١)

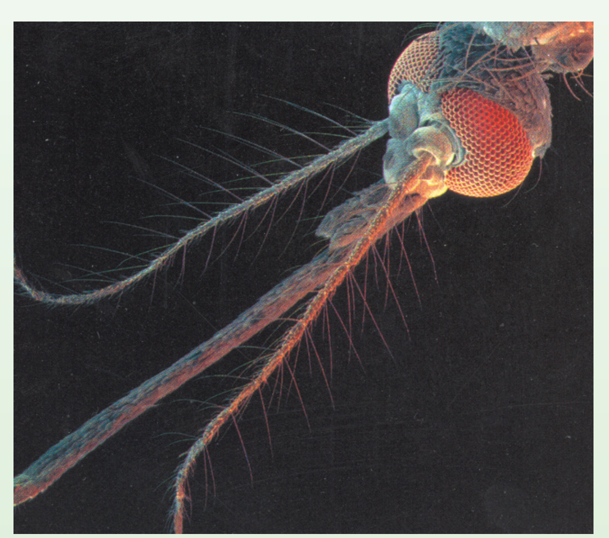
بشكل حاد يُمَكِّنها من قطع الجلد بسهولة. ولكي لا تَشْعُرون بي أقوم بعمل تخدير موضعي بمادة خاصة تفرزها إحدى سكاكيني. وأفرز أنا مادة في تركيب خاص حتى لا تتخَثَّر الدماء أو تتجمد وتفقد سيولتها وتدفقها. لو لم تكن هذه المادة، لقام الدَّم الذي أمتصه بِسَدِّ خرطومي أثناء عملية المصِّ، وكنت سوف أموت ولن أستطيع امتصاص الدماء مرة أخرى. إذا ما قمت بالتخدير بشكل جيد أو إذا كان الشخص الذي لدغته نائماً ولم يشعر، فمعنى هذا أن هناك وليمة لي. فأنا أستطيع أن أَرضع كمية من الدم تبلغ ٢,٨ ملجم في المرة الواحدة. وهذا يزيد حتى عن وزني الذي يبلغ ٢,٥ ملجم. ولما كان جلد معدتي مرن وقابل للتمدد، ففي ظرف دقيقتين أو ثلاث يمتلئ بطني بالدماء. ولما كان هضم الدماء التي في بطني يَستمر طويلاً، فيمكنني البقاء ما بين ٣ – ٤ أيام دون أن آكل أي شيء.

إن بعض أنواعنا يمكنها أن تمص ثلاثمائة ميكرولتراً من الدماء خلال ١٥ دقيقة، وهذا يُماثل ستة أضعاف جسمها. أنا لا أعيش مشكلة رضاعة (شكل ٢). إن الفراغات الداخلية في رأسي قد جُهِّزت بالعضلات. وفيما بين انقباض هذه العضلات وانفراجها هناك فرق



(الشكل ٢)

ضغط جوي ما بين ١ – ٢ (ضاغط رضاعة). ودماء الشخص الذي لدغته يرتفع داخل خرطوم المص بسرعة خمسة أمتار في الثانية. لا تخافوا ولا تقلقوا، فإن هذا الضغط لن يفجر خرطومي، لأن الله قد خلق جهازي الحياتي هذا في تركيب خاص (شكل ٣).



(الشكل ٣)

مَنْ هو الإنسان الذي أَمص دمه أكثر..؟ إن الجواب على هذا السؤال فيه إفشاء للسر. ولكن أبوح بما يلي؛ فأنا أستطيع أن أجد الإنسان الذي سأمص دمه في الظلام الدامس. ولكي أَحصل على صيدي، فقد وضع ربي في وسط أقدامي الأمامية تماماً أجهزة استقبال حراري حساسة. وبواسطة هذه الأجهزة الحرارية أُحدد على أجسادكم أكثر الأماكن حرارة وأكثرها تشبعاً بالدماء تحت الجلد. هذا بالإضافة إلى وجود أجهزة استكشاف حساسة للغاية فوق جسدي بحيث إن عقولكم أو خيالكم لا يتصورها. أنا أعرف بني البشر من رائحة عرقهم ودرجة حرارتهم. إنني بمعدَّاتي التي تحدد نسبة الرُّطُوبَة والأمِين في نَفَسِكم وحامض اللاكتيك والأحماض الدهنية وزيت الآمون وأحماض الأمينو وأكاسيد الكربونات في عرقكم، أجدُ أنسبَ الأماكن للثقب في جلدكم، مثلما تفعل الطائرات التي تهبط في المطارات بطيار آلي. إن المؤشرات والعدادات الموجودة في كبائن الطائرات التي تُرشد الطيَّار وتُنبِّهه وتُقدم له المعلومات اللازمة عن وضع الطائرة، هذه كلها بجوار مُعَدَّاتي لا تصلح حتى لكي تكون لعباً للأطفال.

إن الإناث فيما بيننا مضطرة لإيجاد كل الظروف الموائمة وأنسب المياه من أجل أن تضع بيضها. لذلك فهي تُشَغِّل وبشكل حساس جهاز البحث عن الرطوبة الموجود في بطونها. وبواسطة هذا الجهاز، فإن الأنثى التي هي صاحبة معارف ومعلومات عن تكوين ورطوبة الأرض التي تمر من فوقها خلال الطيران، ما أن تجد مياهاً مناسبة وغنية بالنباتات حتى تضع بيضها فوراً.

إن جهاز جوهنستون الموجود في هوائياتنا هو جهاز استماع حساس. ولما كانت هناك فوارق بين سرعة ضربات أجنحة الذكور والإناث، فهناك فرق أيضاً فيما بين اللحن أو النغمات الصادرة عن الأصوات التي تُصدرها الأجنحة عند الطيران. ولما كانت الإناث تضرب أجنحتها بشكل أسرع، فإن الذكور –الذين سيكونون معها، وفي حالة فاعلية ونشاط من أجل الحفاظ على النسل والنوع– بفضل هذا الجهاز الذي وهبه ربي يمكنهم إيجاد رفيقاتهم. هل يمكن أن تُخمن مدى الكمال الذي يحدث من مثل رفرفة الأجنحة التي تبلغ ٥٠٠ مرة في الثانية الواحدة..؟ إنكم تستطيعون بالكاد أن تحركوا أذرعتكم وتفتحوها وتغلقوها مثل الجناح مرة واحدة في الثانية على أحسن تقدير. فلا عضلاتكم ولا مفاصلكم قد خُلِقت لتوائم هذا العمل. فروابط مفاصلي وعضلاتي أقوى مما هي عندكم.

يجب ترك البيض في متراكمات مائية مناسبة للتطور. لقد اتخذت التدابير اللازمة من قبل صاحب القدرة اللانهائية حتى لا يغوص بيضنا في الماء. فبعض أجناسنا تُثبِّت حُجَيْرَات هوائية فوق بيضها حتى تحول دون غَوْصِهِ في الماء، بينما يوجد لبعض أنواعنا

ميزابات وأخاديد مليئة بالهواء فوق بيضها. كما أننا نلصق أعداداً غفيرة من البيض بمادة لاصقة خاصة ونجعلها كالصال أي الرمث العائم فوق الماء. ولما كانت الأخاديد مثل الوسائد الهوائية، فهي تحول دون غرق بيضنا.

بعض الأنواع الأخرى تترك بيضها في الماء بعد أن تكون قد غلّفته بمادة جيلاتينية هولامية لتحميها، مستفيدة من قانون جاذبية سطح الأرض. نحن لم نكن على علم بضغط الأرض وجاذبيتها، كما أننا لم نكن نعرف شيئاً عن قوة الرفع للمياه. ولكن الذي رحمته بلا نهاية، بناء على فقرنا وعجزنا، فقد تَكَفَّل بحماية بيضنا على أجمل هيئة.

إن اليرقات التي تخرج من البيضة في طول يتراوح ما بين ١ – ١,٥ ملم تكبر بسرعة لاستمرار أكلها. ولها أجهزتها الخاصة جداً والتي تُمَكِّنها من التغذية دون أن تختنق تحت الماء. إنها تستخدم أنابيب الهواء الخاصة بها والتي على شكل شُعَيْرات ممتدة فوق المياه وبشكل أفضل من تلك التي تخص الغواصين. ولما كانت هذه الشعيرات مصنوعة من مادة الهيدروفوبك، يَعْني لما كانت لا تتبلل بالمياه، فإن الماء لا يتسرب إلى الداخل. ولكن إذا ما وُضِع مازوت في الماء أو خُلِط بسائل زيتي، فإن خاصِّيَّة هذه الشعيرات تَفْسُد، وتملأ المياه داخل الأنابيب مع أقل تَمَوُّج على سطح الماء. ومن الطبيعي أن ينتج عن هذا الوضع الموت المحقق لليرقات. ولمَّا اكتشفتم ذلك، فإنكم تلقون بالمازوت إلى التجمعات المائية في صراعكم معنا. ومن أجل إعدام يرقاتي فقط فإنكم تقضون على الطبيعة مُلَوِّثين الماء. بينما الأمر أنكم لو لم تتدخلوا فإن الكثير من صِغار الأسماك والضفادع تلتهم يرقاتي. إنها بهذا الصنيع ستكون قد ملأت بطونها من ناحية. ومن ناحية أخرى أمَّنت السَّيْطَرة على نسبة أعدادنا. وبالطبع لن تكون قد لَوَّثَت البيئة الطبيعية، بل حافظت على توازن البيئة. ولما كنتم لا تفكرون في شيء آخر غير قتل وإعدام يرقاتي، فإنكم لا تفقهون التوازن الكامل الذي أودعه ربي في الطبيعة. وتلقون جانباً حق الآخرين في الحياة، مستمرين في نهب دنياي الجميلة، مدفوعين بالحرص والطمع والأنانية إلى آخر المدى. والخلاصة فالخاسر أيضاً هو أنتم.

إن كان حديثي مؤلماً إلى حد ما، فلقد انصرفت عن الحديث حول إبداع ربي وشرعت في شكواكم لأنفسكم. فلنكتف بهذا القدر. فلقد قال أجدادكم الذين كانوا يهتمون أكثر منكم بالتوازن البيئي؛ «لِمَنْ يَفْهَم تَكْفِيه رَباب بَعُوضَة، أمَّا المنكر فلا يُجْدِي معه طبلٌ أو زمرٌ». وما أصدقه من قول..!!

* جامعة ٩ أيلول–تركيا

نظر الفجر إلينا

نَظَرَ الفجرُ إلينـا بابتسـام وانشـراح

فسقانا من صفاء وَجْدِنا كأس الصباح

قال: كونوا يا صِحابي أوفيـاءَ للضيـاء

واسكنوا الآفاقَ حُبا إنكم أهـلُ الوفـاء

اطلبوا المجد دَوامـاً بـافتخار واقتـدار

وارسُمُوا الآمال زَهراً لِصغارٍ وكبـار

مولاي الحسن الحسيني – المغرب



كيف نكوّن الحسّ الديني لدى الأطفال؟

صدر الدين أيدر *

إنّ السّؤال المتمثّل في «ماذا نعلّم الطّفل ومتى نعلّمه وكيف نعلّمه ومن يعلّمه؟» يشغل بال الآباء والأمّهات والمربّين منذ القديم. وعندما يتعلّق الأمر بالمواضيع الدّينيّة يصبح هذا السّؤال أكثر أهمّيّة. واليوم تقال أشياء مختلفة في هذا الموضوع، بل إنّ بعض الأشخاص الّذين تُعرف نواياهم يصرّون على عدم تلقين الأطفال أي تربية دينيّة حتّى سنّ الحادية عشرة، وهذا الأمر يلقي بضغوطه باستمرار على الأسر في بعض البلاد الإسلامية.

لم يلاحظ في زمن من الأزمان أنّ الإنسان عاش خلوا من الدّين. ولقد وجد «الدّين» بلا شكّ في جميع فترات التّاريخ بغضّ النّظر عن اسمه وشكله. فالإنسان الّذي تسكن بين جوانبه ميول ماديّة وتتنازعه جوانب روحيّة ويسعى جاهدًا من أجل مواصلة وجوده المادّي، يبحث من جانب آخر عن الأجوبة المُقنعة بواسطة «معرفة دينيّة» سليمة بشكل خاصّ. فالتّربية الدّينيّة الّتي يتلقّاها الإنسان في مرحلة طفولته تترك آثارها العميقة في نفسه طوال حياته. ولذلك ينبغي أن تقدّم له هذه المعرفة منذ الطّفولة.

وينبغي ألاّ ننسى أن الغصن إنما يُلوى وهو لا يزال غضّا طريًا. يقول الإمام الغزالي: «إنّ قلب الطّفل فارغ، صاف، له ميل فطري لتلقّي كلّ شيء، والميل إلى كلّ شيء». وأمّا ابن مسكويه فيقول: «إنّ الطّفل في هذه المرحلة جاهز لتقبّل كلّ التّعاليم والتّلقينات الّتي توجّه له». وكما يقول ابن سينا: «عند ولادة الطّفل تولد معه جملة من

القدرات، بيد أنّه يتعيّن تطوير هذه القدرات»، بمعنى أنّ هذه القابليات إذا وجّهت نحو الخير والدّين نشأ الطّفل مؤمنا، أمّا إذا وجّهت نحو الشّر والإلحاد فإنّ الطّفل ينشأ غير مؤمن.

ويقول بديع الزّمان: «إنّ الطّفل إذا لم يتلق في طفولته دروسا إيمانيّة حيّة فإنّ نفسه بعد ذلك يصبح من العسير عليها تقبّل الإسلام وأركان الإيمان، بل إنّ هذه الصّعوبة تصل إلى درجة أن يصبح الواحد في علاقته بتقبّل الإسلام شأنه شأن غير المسلم».

وعند النّظر في المراجع المتعلّقة بنفسية الطّفل يلاحظ أنّ مرحلة الطّفولة تنقسم إلى ثلاثة أقسام. وهذه الأقسام الثّلاثة هي بشكل عام على النّحو التّالي:

مرحلة الرّضاعة: بين سنّ ٠ – ٣ سنوات.

مرحلة الطّفولة الأولى: بين ٣–٦ سنوات.

مرحلة الطّفولة الأخيرة: بين ٦–١١ سنة للإناث وبين ٦–١٣ سنة للذّكور.

وتعتبر المرحلتان الأوليان الأكثر تأثيرا في مستقبل الطّفل.

مرحلة الرّضاعة

في هذه المرحلة الّتي تمتد من الولادة إلى سن الثالثة لا يلاحظ لدى الطّفل أيّ تعبير عن أي إحساس أو تفكير ديني. فالطّفل في وضعيّة سلبيّة تماما، وهو يحتاج في كلّ الأمور إلى الوالدين، غير أنّه من جانب آخر ليس معزولا بشكل تامّ عن العالم وعن محيطه. فالطّفل وإن كان لا يمارس أيّ نشاط بدني أو اجتماعي بالمعنى الحقيقي، إلاّ أنّه حسّاس إزاء الأحداث التي تقع في بيئته. فقد أثبتت الأبحاث أنّ الطّفل قد خلق مزوّدا بقابليات «روحيّة» إزاء التّلقينات الدّينيّة الّتي ترد إليه من الخارج. وقد عبّر عن ذلك العلامة حمدي يازر بقوله: «إنّ كلّ فرد قد ركّز في روحه إحساس بالحقّ، وغُرزت في داخله قوّة لمعرفة الله تعالى».

ويقول عالم النّفس الألماني هولنباخ: «يمتلك الطّفل إحساسا شديدا بالرّغبة في المعرفة والبحث عن قدرة غير محدودة تساعده وتحميه. وهي لا تزال غير ظاهرة، ولم يتمّ التّمكّن من شرحها إلى حدّ الآن. والشّيء الّذي يجعل من الطّفل شخصا متديّنا هو هذا الشّوق والرّغبة في الاكتشاف إزاء اللاّمحدود، وهذه الرّغبة كامنة في داخله. بيد أنّه من الضّروري أن تشجّع هذه الرّغبة ويُغذى هذا الحماس ويُوجّها من قبل العائلة».

مرحلة الطفولة الأولى (مرحلة التقليد)

بداية من سنّ الثّالثة يبدأ الطّفل بالاهتمام بمحيطه بشكل مكثّف، ويحاول أن يلعب بكلّ ما يقع في يده، ويحاول كذلك أن يتعرّف عليه. وفي هذه المرحلة تبدأ مشاعر مثل الإحساس بالأمان والحبّ والإحساس بحبّ الآخرين في التكون بشكل كبير. ويريد الطّفل أن يبيّن أنّه ليس في حاجة إلى الآخرين من أجل تلبية هذه الاحتياجات. ونتيجة لذلك يعمل الطّفل على امتلاك كلّ ما يوجد في محيطه، ويسعى إلى كسره أو تمزيقه، وبهذه الصّورة يعمل على إثبات وجوده. والأطفال الّذين هم في هذا العمر يتصرّفون أساسا انطلاقا من عواطفهم. ويكون اهتمامهم أقوى إزاء الأشياء الّتي تخاطب عواطفهم. وبالإضافة إلى ذلك، فذكاء الطّفل ليس بوسعه إدراك جميع المفاهيم بعد، ولا يعرف كيف يتفاعل مع الأحداث الّتي تواجهه. ونتيجة لذلك فالتّقليد هو السمة التي تميّز الأطفال بشكل خاصّ في هذا العمر.

والأطفال الّذين هم في هذا العمر يشعرون بالحاجة إلى اتّخاذ نموذج لهم يتّبعونه. والأشخاص الّذين يمكن للطّفل اتّخاذهم قدوة هم أفراد العائلة. وقد كشفت الأبحاث أنّ بيئة الطّفل (الأسرة) هي العامل الأكثر تأثيرا عليه، في طبيعة تصرّفاته ومواقفه الدّينيّة. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل إنسان تلده أمه على الفطرة، وأبواه بعد يهودانه وينصرانه ويمجسانه، فإن كانا مسلمين فمسلم»(رواه مسلم). فإذا كان الوالدان مسلمين يكون مسلما. فالحديث يشير بذلك إلى أهميّة الأسرة، وبشكل خاصّ إلى الوالدين في تكوين الإحساس الدّيني والفكري لدى الطّفل.

والأطفال في هذه السّنّ يستقبلون بكلّ تلقائيّة العبارات والسّلوك الدّيني وجميع العناصر الدينية الّتي يلاحظونها في أفراد العائلة ويعملون على تقليدهم باعتبارهم يمثّلون «النّموذج المثالي» بالنّسبة إليهم. وهذا الميل الفطري للتقليد لدى الطفل مصدره نفسية «تقليد المحبوب»، وهذا مهمّ جدّا فيما يتعلّق بتشكيل الحياة الدّينيّة لدى الطّفل. ومن هذا المنطلق على الأشخاص الّذين يتّخذهم الأطفال «نماذج» أن يكونوا حذرين إزاء ما يصدر عنهم من كلمات ومن تصرّفات. فالوالدان اللذان يوجّهان النّصح لأطفالهم بغاية تغذية المشاعر الدّينيّة فيهم، ينبغي أن لا يتعارض كلامهم مع حياتهم العمليّة، بل وينبغي أن يؤكد الكلام بالعبادات مثل الصّلاة والصّيام



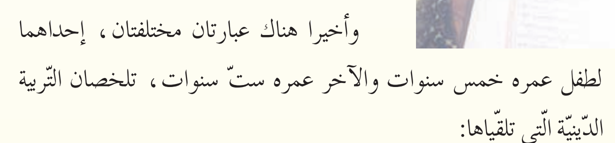
والدعاء والحج والإنفاق. فعندما لا يكون كلامهم الجميل متوافقا مع سلوكهم، وعندما تكون أعمالهم غير منسجمة مع أقوالهم فإنّ ما يصدر عنهم من كلام سوف لن يتجاوز آذانهم، بل إنّه في بعض الأحيان يصبح لهذا الكلام تأثير عكسيّ.

حسنا، كيف ينبغي أن يكون سلوك هذا النّموذج (الأسرة)؟

إنّ الأبوين اللّذين يريدان أن يكون لكلامهما وقع في نفوس أطفالهم، عليهما أوّلا أن يطبّقا ما يقولانه بصدق، ثمّ يطلبا بعد ذلك من أطفالهم الالتزام به.

القدوة الصالحة

إنّ استماع الطّفل للأدعية الّتي يدعو بها الأشخاص (القدوة) الموجودون في محيطه ورؤيته للعبادات والمعاملات الدّينيّة الّتي يقومون بها تمثّل أهميّة قصوى بالنّسبة إليهم. فما يسمعونه منهم يترسّخ في اللاشعور لديهم، ثمّ يبدأ الطّفل بعد ذلك شيئا فشيئا في تقبّله. فمثلا، يشاهد الطّفل الّذي هو في سنّ الثّالثة أو الرّابعة من العمر أحد والديه وهو يؤدّي الصّلاة ثمّ يتابع سلوكه ثمّ يحاكيه بعد ذلك. وكذلك عندما يلاحظ الطّفل أنّ والديه يبدآن بالاستعداد للصّلاة مع سماع الأذان، فبعد فترة من الزّمن ما إن يُرفع الآذان حتّى يسارع الطّفل إلى القيام، ويقول لهما «حيّ على الصّلاة»، وهو بتلك الحركة يريد أن يثبت ذاته.



كما أنّ كلمات الأدعية وعبارات الشّكر الّتي تقال في البيت بصوت مرتفع تصبح محلّ محاكاة وتقليد من قبل الطّفل بعد فترة من الوقت. كما ينبغي أن نقول للطّفل بأنّه يتعيّن عليه أن يدعو الله تعالى من أجل تحقيق حاجاته. وعلى هذا النّحو يترسّخ في ذهنه أنّ الله تعالى هو ملجأه الوحيد. ومن ناحية أخرى يجب أن نعلّم الطّفل الإيمان بالله وفوائد العبوديّة لله تعالى ونشرح له مساعدة الله لعباده المؤمنين.

وعند القيام بهذه العمليّة علينا أن نستعين في ذلك بالحكايات والقصص الّتي تشدّ انتباه الطّفل. فالحكايات والمناقب التي لها صلة بالإيمان تسرع من تطوير الأفكار لدى الطّفل، حيث تدل على أنّ وراء الأشياء المادّيّة قوة أخرى. ولهذا السّبب يتعيّن أن نقصّ على الأطفال قصص الأنبياء الموجودة في القرآن، وكذلك حياة النّبي ﷺ، إضافة إلى مشاهد البطولة والصّبر الّتي ميّزت حياة الصّحابة الكرام، والعزم والجهد الّذي أبدوه. وعلى هذا النحو يتشكّل في أذهان الأطفال النّموذج المثالي.

كيف يجب أن تكون اللّعب الّتي نقتنيها للطّفل؟

في هذه المرحلة لا يستطيع الطّفل أن يستوعب المفاهيم المجرّدة، لذلك يهتمّ بالرّموز أكثر. ولهذا السّبب ينبغي أن تكون اللّعب الّتي تعطى للطّفل قادرة على التّعبير عن الحياة الدّينيّة. فمن اللّعب التي تعطى للأطفال والّتي تحتوي على عناصر دينيّة نجد «ألعاب التّركيب» والكلمات المتقاطعة وسيديهات الأفلام الكرتونيّة وغيرها.

وإلى جانب ذلك، هناك أسلوب آخر في التّعليم يتمثّل في الهدايا الّتي تقدم من قبل الأشخاص الّذين اتّخذهم الطفل قدوة ونموذجا. وهذه الهدايا يمكن أن تكون سجّادة أو مسبحة وما شابه ذلك من الأشياء. فالحسّ الدّيني لدى الأطفال لا يمكن أن يُزرع في نفوسهم إلاّ بواسطة الحب ومن قبل من يحبّون من النّاس. فربط الأطفال بالله تعالى عن طريق الأمل والحبّ، أمر مهمّ من حيث جعل ملكاتهم العقليّة والذّهنيّة في صلة بهذه الأمور مستقبلا. فالتّربية الإيمانيّة القائمة على حبّ الله تعالى تلتحم بالشّعور بالأمل والارتباط بالله تعالى، وهذان العنصران يعدّان من المشاعر الأساسيّة لدى الطّفل. وبذلك تتكوّن قواعد إيمانيّة قويّة وصلبة.

وأخيرا هناك عبارتان مختلفتان، إحداهما لطفل عمره خمس سنوات والآخر عمره ستّ سنوات، تلخصان التّربية الدّينيّة الّتي تلقّاها:

مراد (خمس سنوات): «عندما نقيم الصّلاة، ونحسن إلى النّاس يحبّنا الله تعالى. وعندما نخطئ فهو يغفر لنا. وهو يحبّ الأمّهات والآباء والإخوة والجدّات والأصدقاء ويحبّ جميع النّاس، ويحبّ الأطفال الصّغار بوجه خاص».

علي (ستّ سنوات): «إذا عصيت والديْك فالله يعذّبك بالنّار... وإذا عصيْت الديْك وضربتهما فكأنّما عصيت الله تعالى. ولذلك فالله يلقي بك في جهنم ويحرقك فيها. أمّا إذا تفوّهنا بكلام سيء فالله يشوي أبداننا بالنّار الحارقة».

ولا داعي هُنا لنقول أيّ الحديثين أكثرُ رشدا؟

* باحث متخصص في علم التربية – تركيا



الإيمان والشفاء

د. ألفونس ويليمز *

ظلت العلاقة بين الإيمان والشفاء محل نظر وجدل ولا تزال. فمعظمنا سمع عن أناس برءوا من أمراض مزمنة بسبب إيمانهم، وقد ظل استكشاف تلك العلاقة أمرا يثير السخرية بين أوساط العلماء والأطباء قرونا عديدة. ووصل الأمر في الخمسة عشر عاما الأخيرة أن اعتبر انتحارا أكاديميا أن يقدم أحد الباحثين دراسة يلمح فيها لأمر كهذا.

غير أن هذا المفهوم آخذ في التغيير، فقد بدأ المتخصصون في معاهد كبرى إجراء أبحاث علمية حول أثر الإيمان في الشفاء. ويمكننا تبين ذلك من المؤتمرات الحديثة المنعقدة في هارفارد وفي عيادة مايو وفي الجمعية الأمريكية لتطوير العلوم المعروفة اختصارا بـ (AAAS).

وفيما يلي أمثلة لهذه الدراسات العلمية والقائمين بها وما توصلوا إليه من نتائج:

د. ديفيد لارسون

الطبيب النفسي ديفيد لارسون هو رئيس المعهد القومي لبحوث العناية بالصحة ومؤلف الكتاب التعليمي «العنصر المنسي» الذي قام بتأليفه بالاشتراك مع زوجته سوزان.

ويناقش في كتابه هذا العلاقة بين الصحة والدين. وتقول الأرقام التي وردت في كتابه عن طريق استطلاع «جالوب» أن ٩٥ بالمائة من الأميركيين يؤمنون بالله، وعلى الرغم من أن النصف يؤمنون بوجود النار فهناك ٨٠ بالمائة يثقون بأن الله غفور رحيم ولا يعذب بها، وهناك ٤٠ بالمائة يحضرون القداس الأسبوعي.

وأثناء عمله كطبيب نفساني مقيم في جامعة ديوك سأل لارسون أستاذا جامعيا عن كيفية إدماج الإيمان في الممارسة الطبية النفسانية،

وكانت الإجابة: «أأنت من النوع الذي يحب أن يؤمن الناس كما تؤمن أنت؟» وعلى الرغم من أن إجابة لارسون كانت بالنفي إلا أن الأستاذ الجامعي استمر قائلا: «يبدو أنك ستضر بمرضاك». ويقول لارسون إن أي أحد يثير أمرا كهذا سيُدمَغ بأنه أصولي، غير أن أبحاثه الواسعة ومنشوراته جذبت له الأنظار مما ساهم في تمويل المعهد القومي لأبحاث العناية بالصحة. فبرنامج الإيمان في الطب الذي يموله المعهد يعطي منحا قدرها عشرة آلاف دولار لمدارس الطب لدراسة مناهج حول الدين والصحة.

وكانت جامعتا جونز هوبكنز وجورج واشنطن من بين أحد عشر مدرسة تلقت تلك المنح.

د. هارولد كونيج

يعد هارولد كونيج –الذي يعمل أستاذاً مساعداً للطب النفسي ومديرا لمركز دراسة الدين والروحانية والصحة التابع لمركز جامعة ديوك الطبي– من بين رواد دراسة قدرات الإيمان الشفائية.

لاحظ كونيج لأول مرة أهمية الإيمان كعنصر مساعد للشفاء حين كان طبيب عائلة مبتدئ. فقد عرضت عليه حالة مريضة أدخلت إلى المستشفى لمدة شهر على إثر جراحة في الفخذ. مات زوج تلك المرأة من جلطة فجائية وسقطت المرأة على الجليد أثناء سيرها في جنازته وأصيبت بشرخ في الفخذ. أما طبيبها فقد حذر كونيج بأن المرأة منهارة عاطفيا. وفي الحقيقة واجهت المرأة أحداثا تؤدي بطبيعتها إلى الاكتئاب، وعليه تقوض عملية الشفاء.

من أجل هذا أصيب كونيج بالدهشة حين رأى تلك العجوز منبسطة الأسارير حين دخل غرفتها وسمعها تقول له: «هل من شيء أؤديه لك أيها الطبيب؟»

ولاحظ كونيج عدم وجود أي علامة ظاهرة تدل على الاكتئاب أو التعب أو حمرة العينين من الدموع أو صعوبة التركيز عند هذه السيدة. وبمحادثتها اكتشف كونيج أنها احتفظت بهذا المرح والرضا بقراءتها للكتاب المقدس، وانبرت المرأة قائلة له: «إذا استيقظت فوجدت نفسي وحيدة أو مذعورة فإنني أقرأ الكتاب المقدس أو أتحدث إلى الرب، فهو دائما معي حتى حين يتركني الأحباب، وهذا أهم شيء يبعث الأمل في جوانحي».

وتعجب كونيج، وحين شفيت المرأة، وجد نفسه مدفوعا لدراسة الأثر الطبي لهذا الإيمان العميق. ومنذ ذلك الحين أخبره مرضى كثيرون كيف استطاعوا بإيمانهم التواؤم مع ما هم فيه وعجّل هذا الأمر شفاءهم.

بل وجمع فريقُه الطبي الذي درس حالات آلاف الأميريكيين منذ عام ١٩٨٤ أدلة دامغة على أن الإيمان الديني لا يحسن الصحة العامة فقط ولكنه يساعد المرضى على الشفاء من الأمراض المزمنة.

يقول كونيج: «حين يصلون لله يكتسب المرضى نوعًا غير مباشر من التحكم في عللهم وهم يوقنون أنهم ليسوا وحدهم في كفاحهم ضد المرض، فالله معهم بنفسه. ويساعدهم هذا اليقين على التغلب على الإحساس بالوحدة الشعورية والذي يؤذي الكثير من المرضى». وفي دراسته لـ ٤٥٥ حالة من مرضى مستشفى العجائز وجد كونيج أن الأشخاص الذين يحضرون إلى الكنيسة أكثر من مرة أسبوعيا يقضون ٤ أيام فقط في المستشفى، بينما يقضي أولئك الذين لا يذهبون إلى الكنيسة أو يذهبون إليها نادرا حوالي ١٠ إلى ١٢ يوما حتى يتم شفاؤهم.

ديل ماثيو

ديل ماثيو يعمل أستاذاً مساعدًا للطب النفسي بالمركز الطبي التابع لجامعة جورج واشنطن بواشنطن. أثناء عمله كطبيب داخلي مبتدئ في أوائل الثمانينات قابل ماثيو مريضًا على قدر كبير من الإيمان ترك أثرًا كبيرًا على حياته. وقبل أن يسمح له بالشروع في علاجه قال الرجل له: «أنا مسيحي صالح، فإن كنت تريد أن تصبح طبيبي فإني أريد منك أن تصلي معي». لم يتحدث ماثيو من قبل عن إيمانه مع مرضاه، ولذا فقد كان متمنعا في البداية. ولكنه وضع يده في يد الرجل الذى أمل أن يظل الأمر سرا بينهما، فهو لا يريد أن يصمه الناس أنه «غير علماني»، غير أنه انتبه على صوت الرجل الذي دوى في غرفة الكشف، لكنه تبين أن مريضه كان كلا متكاملا وليس أعراضا تجمعت وشكلت حالة معينة. وقد دفعه هذا إلى أن يصبح حساسا لأي إشارة تبين أن الإيمان هام للمريض. فإذا ما خاطبه أحد قائلا: «أتمنى من الله ألا يظهر شيئا سيئا



جمع فريق د. كونيج الطبي الذي درس حالات آلاف الأمركيين منذ عام ١٩٨٤ أدلة دامغة على أن الإيمان لا يحسن الصحة العامة فقط، ولكنه يساعد المرضى على الشفاء من الأمراض المزمنة.



في هذه الاختبارات» أجابه ماثيو قائلا: «أخبرني عن صورة الله في عقلك» . ويقول ماثيو: «قد لا يمكننا أن نثبت علميا أن الله يشفي، لكنني أعتقد أن بإمكاننا أن نثبت أن الإيمان بالله يترك آثارًا طيبة» . ولذا ضمّن ماثيو كتابه الأخير «عنصر الإيمان» حكما دينية وأبحاثا علمية وقصص المرضى حتى يثبت العلاقة بين الإيمان والصحة.

نتائج إحصائية

بدأت معاهد الرعاية الصحية في الاهتمام بالعلاقة بين الإيمان والصحة. فقد قامت مدرسة الطب بهارفارد، عيادة مايو، والجمعية الأمريكية لتطوير العلوم برعاية مؤتمرات حول الصحة والروحانية، بل إن ما يقارب نصف كليات الطب الأمريكية تدرس مناهج دراسية في هذا المجال.

وفيما يلي نتائج بعض الدراسات المنشورة في هذا المضمار:

◆ في استطلاع تم توزيعه على ٢٦٩ طبيبا عام ١٩٩٦ في أحد اجتماعات الأكاديمية الأمريكية لأطباء العائلات قال ٩٩ بالمائة إنهم يعتقدون أن المعتقدات الدينية يمكن أن تساهم في الشفاء. وحينما سئلوا عن تجاربهم الشخصية أجاب ٦٦ بالمائة من الأطباء أن الله تدخل وحسن أحوال مرضاهم، بل وبدا الحماس على المرضى بشدة وهم يبينون أن الصلاة أداة فعالة في الشفاء.

◆ كما أظهرت استطلاعات الرأي المنشورة في التايم وسي إين إين أن ثمانين بالمائة من الأمريكيين يرون أن الإيمان والصلاة يمكن أن يساعدا الأفراد على الشفاء من المرض أو الإصابة، وأكثر من ٦٠ بالمائة يعتقدون أن على الأطباء أن يتحدثوا إلى المرضى حول الإيمان بل ويصلون مع من يطلبون ذلك.

◆ طبقا للباحثين في جامعة كولومبيا فالأطفال أبناء الأمهات الملتزمات دينيا أقل عرضة للاكتئاب في المراحل المتأخرة من حياتهم. وفي الدراسة تمت متابعة ٦٠ أما و ١٥١ طفلا لمدة ١٠ سنوات لتحديد ما إذا كان هناك علاقة بين التزام الأم دينيا وتعرض طفلها للإصابة بالاكتئاب. وأظهرت الدراسة أن الإناث –وليس الذكور– اللائي ولدن لأمهات ملتزمات دينيا كنّ أقل عرضة للاكتئاب بنسبة ٦٠ بالمائة خلال متابعة دامت طيلة ١٠ سنوات. وكان ثاني العناصر أهمية في وجود الإصابة بالاكتئاب هو مدى اعتناق الطفل لدين الأم؛ فحين اتحد مذهب الأم وابنتها تبين أن الاكتئاب يقل بنسبة ٧١ بالمائة بينما تصل النسبة في الذكور إلى ٨٤ بالمائة.

◆ أحد أبرز النتائج أيضا هو أن الأمهات الملتزمات هم أنفسهم أقل عرضة للاكتئاب. فقد أظهرت متابعة ١٠ سنوات أن الأمهات اللاتي يجعلن جل اهتمامهن هو الدين يقل تعرضهن للاكتئاب بنسبة ٨١ بالمائة. وتوافقت هذه النتيجة مع الدراسات الأخرى التي بينت العلاقة العكسية بين الإيمان والاكتئاب، وتوجد تفسيرات متعددة لهذه النتائج. كما بين أولئك الباحثون أن الأمهات الملتزمات دينيا أقل عرضة للطلاق ويقل فيهن فقر الأداء الاجتماعي والذي يؤدي وجود أي منهما إلى إصابة الأطفال بالاكتئاب. كما أثبت تعليل آخر أقرته دراسة في كلية الطب بفرجينيا أن الدين يحمي الناس من الاكتئاب بتخفيف رزايا الحياة عنهم.

◆ أظهرت دراسة أجريت بكلية طب دارتموث أن عدد الموتى من بين مرضى القلب الذين يجرون جراحة يزيد ١٤ ضعفا إن لم يشتركوا في أنشطة جماعية ولم يتلمسوا الراحة في الدين. فقد مات ٢١ مريضا خلال ستة أشهر بينما لم تمت أي حالة من بين ٣٧ شخصًا آخرين قالوا جميعا إنهم ملتزمون دينيا.

◆ أظهرت دراسة تمت في جامعة ييل على ٢٨١٢ من كبار السن أن أولئك الذين لم يذهبوا إلى الكنيسة أو ذهبوا نادرا إليها كانت نسبة إصابتهم بالسكتة ضعف نسبة الإصابة بين الذين داوموا على الذهاب.

◆ كما أظهر استطلاع تم توزيعه على ٥٢٨٦ مواطن بولاية كاليفورنيا أن معدلات الوفاة بين أعضاء الكنيسة أقل من معدلاتها بين غير الأعضاء بغض النظر عن عناصر الخطر مثل التدخين والشرب والسمنة وعدم النشاط.

◆ تقل الأعراض وتحسن النتائج الصحية عند المرضى المتدينين بنسبة ٧ من بين كل ٨ مصابين بالسرطان، ٤ من بين كل ٥ مصابين بضغط الدم و ٤ من بين كل ٦ مصابين بأمراض القلب، و ٤ من بين كل ٥ مصابين



واكتشف هؤلاء الباحثون أن الدين يمكن أن يساعد الناس على الشفاء من الاكتئاب، بل إن الحقيقة أنه كلما ارتفعت إيمانيات المريض كلما زادت سرعة شفائه.



بأمراض صحية عامة. وطبقا لأحد التحليلات البحثية فإن المرضى المتدينين أقل ميلا للاكتئاب والانتحار وشرب الخمر وغيرها من أنواع الإدمان.

◆ هل تنفعنا صلاة الآخرين؟ في دراسة أجراها طبيب باطني يدعى راندولف بيرد عام ١٩٨٨ تم تقسيم ٣٩٣ من مرضى القلب بمركز المستشفى الطبي العام بسان فرانسيسكو إلى فريقين، صُلي من أجل الفريق الأول بينما لم يُصَلّ أحد من أجل الفريق الثاني ولم يَعرِف المرضى لأي جماعة ينتمون. وظهر أن المجموعة التي صُلي لها عانت من مضاعفات أقل، والتهاب رئوي أقل، وأزمات قلبية أقل، وكانت حاجتهم للمضادات الحيوية أقل.

◆ قام باحثون بإجراء دراسة على عينة من السكان عددهم ٢٧٣٠ في مشروع دراسي بحثي طويل الأمد يعرف باسم دراسة ضاحية ألاميدا. وتبين لهؤلاء الباحثين أن الأفراد الذين يحضرون المراسم الدينية ويشاركون في الأنشطة الأخرى التي تتم من خلال مكان عبادتهم ينالون حماية من ضغوط الأعباء المالية والمسائل الصحية والمشاكل الأخرى.

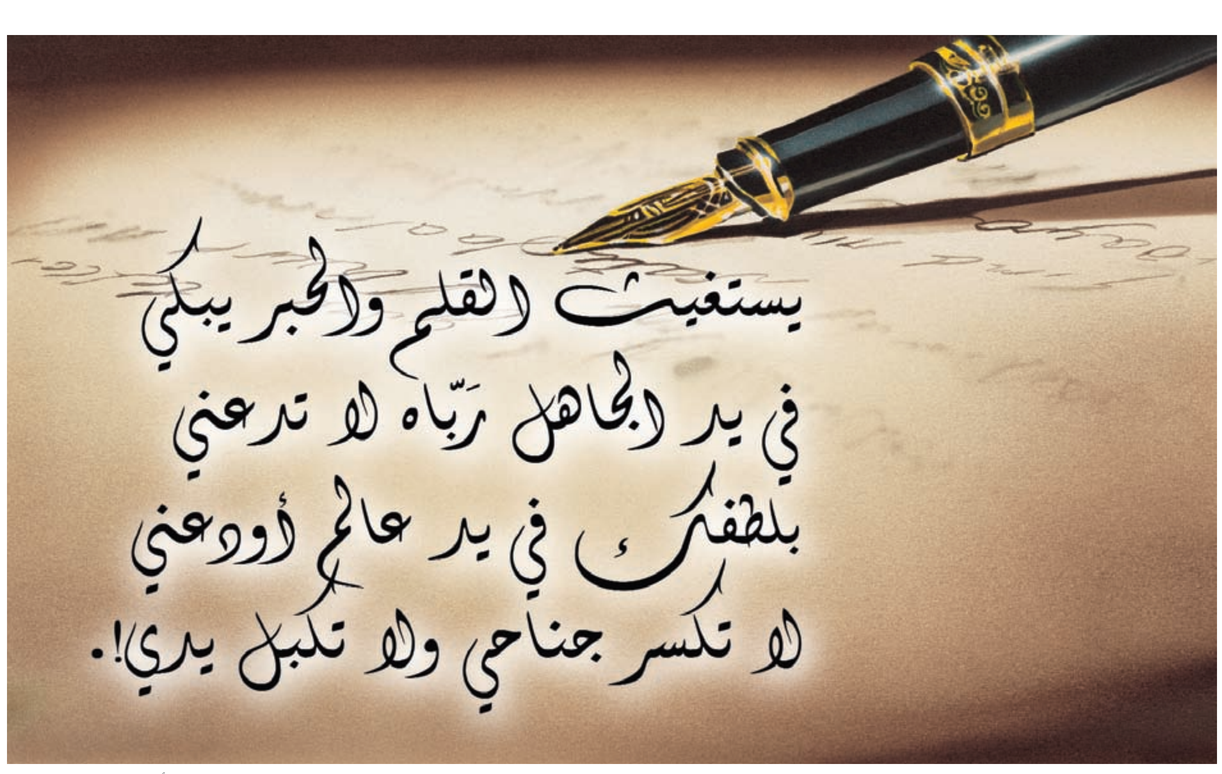
◆ وفي دراسة أجريت على ٦٠٠ شخص من بين مرضى المستشفيات المختلفة تتراوح أعمارهم بين الخامسة والخمسين وما فوقها قاس الباحثون ٤٧ طريقة للتوافق. وتبين لهم أن المرضى الذين التجأوا إلى الله وطلبوا العون الروحي من القس وأعضاء الكنيسة كانوا أقل عرضة للاكتئاب وعاشوا حياة أفضل حتى بعد أن أخذوا في الاعتبار شدة مرضهم؛ كما اتضح للباحثين أن المرضى الذين أعطوا دعما روحيا لغيرهم عن طريق الصلاة لهم أو تشجيع إيمانهم تحسنت أحوالهم.

◆ وأظهرت دراسة حديثة أخرى تمت في جامعة ديوك نتائج مذهلة؛ ففي أول دراسة لاختبار دور الدين في علاج الاكتئاب تابع الباحثون ٨٧ مريضا تزيد أعمارهم عن الستين، وشخصت حالتهم على أنها اضطراب اكتئابي بعد إدخالهم إلى المستشفى على إثر أمراض جسدية. واكتشف هؤلاء الباحثون أن الدين يمكن أن يساعد الناس على الشفاء من الاكتئاب بل إن الحقيقة أنه كلما ارتفعت إيمانيات المريض كلما زادت سرعة شفائه.

خاتمة

هل يمكن للإيمان حقا أن يشفي؟ بعض الباحثين يرون أن الإجابة بالطبع نعم؛ غير أن دراسة العلاقة بين الإيمان والشفاء الجسدي ما زالت ناشئة، لكن هناك علامات هامة أن للإيمان أثرا إيجابيا على الصحة تكمل أثر الدواء والجراحة. ويوما بعد يوم تتزايد نسبة المهتمين –في معاهد لها مكانتها– الذين يدرسون العلاقة بين الإيمان والشفاء بالطرق العلمية. تلك العلاقة التي اعتبرت دراستها أمرا مستهجنا في يوم من الأيام أصبحت تؤخذ اليوم مأخذ الجد في الدوائر العلمية. وبغض النظر عن النتائج فمجرد وجود هذه الجهود يبشر بتوسع احتمالات التعاون بين الإيمان والعلم ويؤدي إلى فهم أفضل للطبيعة البشرية.

* كاتب وباحث أمريكي.



مفهوم "الجمالية" بين الفكر الإسلامي والفلسفة الغربية

أ.د. فريد الأنصاري *

«الجمالية» أو «علم الجمال» مصطلح يستعمل في الفكر المعاصر؛ للدلالة على تخصص من تخصصات العلوم الإنسانية التي تُعْنَى بدراسة «الجمال» من حيث هو «مفهوم» في الوجود، ومن حيث هو «تجربة» فنية في الحياة الإنسانية.

«فالجمالية» إذن؛ علم يبحث في معنى «الجمال» من حيث مفهومه وماهيته ومقاييسه ومقاصده. «والجمالية» في الشيء تَعْنِي أن «الجمال» فيه حقيقة جوهرية وغاية مقصدية، فما وُجِدَ إلا ليكون جميلا![1] وعلى هذا المعنى انبنت سائر «الفنون الجميلة» بشتى أشكالها التعبيرية والتشكيلية.

ومصطلح «الجمالية» أو «علم الجمال» ترجمة لكلمة «استطيقا»، وهي كلمة ولدت في رحم الفلسفة الغربية من الناحية الاصطلاحية خلال القرن الثامن عشر الميلادي. فقد كان الفيلسوف «باومجارتن» سنة ١٧٥٠م أول من سك هذا اللفظ، ثم انتقل استعماله إلى سائر الثقافات والعلوم الإنسانية كالأدب والفن.

إلا أن «الجمالية» من حيث هي مفهوم قديمة قدم الإنسان نفسه، وصاحبت الحضارات البشرية كلها بدون استثناء، واتخذت لها طابعا خاصا مع كل حضارة، كما كانت لها تجليات خاصة ومتميزة مع كل تجربة إنسانية مختلفة.[2] ولم تكن الحضارة الإسلامية بدعا من الحضارات الإنسانية جملة. ذلك أن «الجمال» في الإسلام أصل أصيل، سواء من حيث هو قيمة دينية: عَقَدِيَّةٌ وتشريعية، أو من حيث هو مفهوم كوني، وكذا من حيث هو تجربة وجدانية إنسانية. ومن هنا كان تفاعل الإنسان المسلم مع قيم الجمال ممتدا من مجال العبادة إلى مجال العادة، ومن كتاب الله المسطور إلى كتاب الله المنظور! مما خلد روائع من الأدب والفن التي أنتجها الوجدان الإسلامي في قراءته الراقية للكَوْنَيْن وسياحته الرائعة في العالَمَيْنِ: عالم الغيب وعالم الشهادة!

ولقد قاد الجهلُ بالتراث الإسلامي أو العمى الصليبي بعضَ فلاسفة الغرب إلى حصر التجربة الجمالية الإسلامية في مجال «الإدراك العقلي» دون «الإدراك الوجداني العاطفي»؛ واتهم التجربة الإسلامية بالفقر الفني والجمالي! فأقل ما يقال عن مثل هذا الاتهام أن صاحبه جاهل بحقيقة الإسلام وقيمه الجمالية من جهة، وبتجربة الأمة الإسلامية من جهة أخرى. أعني على المستوى الجمالي، في كل



تجلياتها العربية وغير العربية: فارسيةً وهنديةً وتركيةً ثم مَالَويَّةً!

ولقد انبرى الفيلسوف الفرنسي المعاصر «إتيان سوريو» فيلسوف «الجمالية» وأستاذ علم الجمال في جامعة السربون بباريس[٣] للدفاع عن هذه الحقيقة، ردا على بعضهم، لكنه مع ذلك لم يكن موفّقا كل التوفيق بسبب نقص المعطيات عنده عن قيم الجمال في الإسلام وعن تجربة المسلمين في ذلك المجال. يقول محيلا على اتهامات «بلزاك» في كتابه «الابن الملعون»: «لطالما قيل - وعلى غير وجهٍ من حق - إن الفن العربي قد كان فنا إدراكيا، لا يتوجه إلا إلى الفكر النظري المحض وليست له أية قدرة على الإثارة العاطفية!».[٤] ثم يستطرد بعد ذلك مدافعا عن الجمالية الإسلامية، بشواهد من جمالية العمران وفن العمارة بالبلاد العربية والإسلامية، لكن - مع الأسف - بتحليلات هي أقرب إلى الخرافة منها إلى المقاييس العلمية للجمال!

يقول: «إن هذا الرأي هو خاطئ تماما! والحقيقة هي ما ذهب إليه من قبل «غايي: Gayet» عندما تحدث في كتابه: «الفن العربي» عن المشاعر التي تثيرها - من وجهة نظر الجمالية العربية - المعطيات الجمال في التجربة الإنسانية الإسلامية! فأنكرها بعضهم، وبقي البعض الآخر أسير الجدران والأسوار يحاول فك رموز النقوش وأشكال الزخارف، كما يحاول العالم الأركيولوجي فك رموز بدائية، في قطعة حجرية من عصور ما قبل التاريخ.

إن الجمالية الإسلامية تنبع أولا من حقائق الإيمان، إذْ تَشَكَّلَ الوجدانُ الإنساني فيها مما تلقاه من أنوار عن رب العالمين، الرحمن الرحيم، وما انخرط فيه بعد ذلك؛ سيرا إلى الله تعالى عبر أشواق الروح، مبدعا - باتباع تعاليم نبيه ﷺ - أروع ألوان التعبير الجمالي، من سائر أشكال العبادات والمعاملات والعلاقات، انطلاقا من حركته التعبدية في جمالية الصلوات ولوحاتها الحية الراقية وما يَنْظِمُهَا من عمران روحي ومادي، إلى هندسة المدائن الإسلامية بما تحمله من قيم روحية سامية، وقيم حضارية متميزة جدا، إلى سائر النشاط الإنساني الذي أبدعه المسلمون في علاقتهم بربهم وعلاقتهم بأنفسهم وبغيرهم، إلى علاقتهم بالأشياء المحيطة بهم، بدءً بالمسخَّرَات من الممتلكات والحيوان، إلى المحيط الكوني الفسيح، الممتد من عالم الشهادة حولهم

إن الروحية الإسلامية تحترس على الأخص من مخاطر الفن التجسيمي، وتجد لها ضمانات كبرى في استعمال الفن التجريدي. من هنا، ومن هذه الوجهة خصوصا، يجب تفسير الوضع الجمالي للفن الإسلامي من الناحية التجريدية.

الهندسية لذلك الفن بتفاصيلها وأشكالها. ولذا فهو يقول بأن الدوائر الهندسية إذا كانت زواياها المتعددة مزدوجة، فإنها «توقظ في النفس مشاعر عميقة مطبوعة بطابع الصفاء العذب»، أما إذا كان عدد زواياها مفردا فإنها تبعث على «الحزن المبهم والقلق والاضطراب». ويقول أيضا: «إن الصورة المتكونة من الجمع بين المربعات والمثمنات تبعث على فكرة السكون الأبدي، أما تلك التي تنبثق من الأشكال ذات الزوايا التسع فإنها توقظ الإحساس بسر مبهم مضطرب!»[٥]

كذا..!! والعجيب حقا هو كيف فهم «غايي» أن هذا التفسير الغريب للأشكال الهندسية هو «من وجهة نظر الجمالية العربية»، ثم كيف قبل منه الأستاذ «سوريو» هذا الهذيان ونقله على سبيل التبني في كتابه! لقد كان الأولى بغايي هذا أن يعرض أحواله المترددة ما بين «الصفاء العذب، والحزن المبهم، والقلق، والاضطراب» على طبيب نفسي خير له وللعلم من أن يفسر به أشكالا هندسية في صومعة، أو قبة مسجد، أو زوايا قلعة! لقد ضل كثير من مؤرخي الجمالية الغربيين الطريقَ إلى معالم الجمال الحق في الإسلام، وأخطؤوا مواطنَ علم إلى عالم الغيب فوقهم... كل ذلك تفاعل معه المسلم؛ فأنتج أروع الأدبيات التعبيرية والرمزية، مما لا تزال تباريحه المشوقة بالمحبة، من الترتيل إلى التشكيل تفيض على العالَم بالجمال والجلال أبداً.

إن العمارة الإسلامية - رغم ثرائها الجمالي الرفيع - هي آخر ما ينبغي الاشتغال به لمن أراد أن يدرس الجمالية الإسلامية في مصادرها الأولى. لأن حصون المدائن وجدرانها إنما هي التجليات المادية المعبرة عن أشواق الروح، الفياضة عبر القباب والمآذن مندفعة بقوة نحو السماء. وإنما هي صورة التعبير الرمزي عن معاني الاحتضان العاطفي وقيم الأخلاق الاجتماعية والحنان الرَّيان بما امتازت به من حياء وتستر وانحناءات، تتلوى أضلاعها الخفاقة بالمحبة بين الدروب، تسلك بالرجال والنساء مسالك الحشمة الرقيقة والوقار العالي، إلى المساجد وإلى الغرفات والشرفات الكاشفة الساترة... ثم تنشر أسرارها نقوشا وزخرفة تتبادل الأدوار مع أحرف الخط العربي بشتى أشكاله، في كلمات ناطقة حينا، وناظرة أحيانا أخرى... كلها تتدلى مثل العناقيد من بين الأقواس، تستقبل مواجيد المحبين وترد سلام



المتبتلين، لتتوحد معهم في صلاة أبدية خالدة.

ولقد دَبَّجَ المسلمون في مصنفات المحبة والسلام تباريحَ الأشواق أنى مرساها، ووصفوا مقامات النور كيف مجراها، ورسموا كلمات الجمال بما لا قِبَلَ به لأحد من العالمين.[٦]

وكأنما الفرق في «الجمالية» بين مفهومَيْها الغربي والإسلامي كالفرق بين الطبيعة والتمثال أو بين الحقيقة والخيال. ولم تكن الصورة التي يبدعها المسلم ثابتة قارة يأكلها البِلَى في متحف «اللوفر» أو غيره من متاحف العالم، ولكنها صورة حية يشكلها بإبداعه اليومي بين ركوع وسجود، وطواف وسعي، أو بين صوم وتبتل، وانقطاع يصله كليا بالملأ الأعلى... ثم مواجيد يتنفسها بعد ذلك كلماتٍ وكتاباتٍ ذات صور الجمالُ فيها له روح، صور لا تبلى أبد الزمان: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح:٢٩).

تلك صورهم الحية، فأين منها بسمة «الجوكاندا» المصطنعة الشاحبة، أو وجوه «بيكاسو» المتداخلة المتنافرة! هذه صور الجمال في الأدبيات الإسلامية ما تزال تتجدد عبر التاريخ أبدا، ولا يزال القارئ لها في كل مكان يشارك بمخيلته في إبداع الأشكال كما هو يريد، بحرية تتحدى آخر الصيحات في عالم الرسم والتشكيل. وليس عندهم صور ميتة يفرضها فنان على الناس فتستعبد مُخَيِّلَةَ الأجيال وتقتل إبداعهم. ومن هنا توجه الفن الإسلامي حضاريا – في الأعم الغالب – إلى الإبداع ضمن جمالية «التجريد». والتجريد في الحقيقة إنما هو لغة الروح، وريشة الوجدان. يقول «إتيان سوريو»: «والحقيقة التي لا بد من التنويه بها كذلك، هي أن الروحية الإسلامية تحترس على الأخص من مخاطر الفن التجسيمي، وتجد لها ضمانات كبرى في استعمال الفن التجريدي. من هنا، ومن هذه الوجهة خصوصا، يجب تفسير الوضع الجمالي للفن الإسلامي من الناحية التجريدية. أضف إلى ذلك أن الفن التجريدي هو بالضبط الفن الذي يستجيب في العالم العربي لما تقتضيه الحاجة الجمالية اقتضاء شديدا ودقيقا».[٧]

إن لغة التجريد في الفن الإسلامي هي التي تصنع حركة الحياة الفعلية في المجتمع، حيث تتفتق جماليتُها المتجددة سلوكا حضاريا راقيا، وعلاقات اجتماعية مفعمة بالود والمحبة والسلام،

إن الجمالية الإسلامية تنبع أولا من حقائق الإيمان، إذْ تَشَكَّلَ الوجدانُ الإنساني فيها مما تلقاه من أنوار عن رب العالمين، الرحمن الرحيم، وما انخرط فيه بعد ذلك؛ سيرا إلى الله تعالى عبر أشواق الروح، مبدعا – باتباع تعاليم نبيه ﷺ – أروع ألوان التعبير الجمالي، من سائر أشكال العبادات والمعاملات والعلاقات.

تتضافر جميعها في نسيج عمراني يرقى إلى درجة المثال، وذلك بما يفيض من وجدان الإنسان المسلم من تباريح الإيمان وأشواق الروح.

وما قتل الفن الغربي شيء مثل الولع بسجن الإبداع في الصور الجامدة الثابتة، ولو في حركتها الوهمية الاصطناعية. وعليه فإن الوضع الفني في أوروبا قد وصل فعلا إلى الباب المسدود. يقول فيلسوف الجمالية المعاصر: «إذا أخذنا الفن أداة للحكم على الحاجات الجمالية لوقتنا الحاضر، نجدها قد أصيبت بتغييرات جذرية منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى اليوم. فالزائر الذي يتجول في أرجاء متحف للفن الحديث، لو انتقل من قاعة تضم لوحات انطباعية إلى قاعة أخرى تضم لوحات حديثة من الفن التجريدي أو التجسيمي، لاجتاحه – ولا ريب – شعور بالانتقال من عالم إلى عالم آخر، وإحساس بالغربة عميق. ولنقابل المسألة هنا بكل حدتها، فلا نتردد بالقول بأن هذا الزائر نفسه (...) قد تسول له نفسه أن يتحدث عن خط انحداري ومسيرة تقهقرية في الفن»،[8] إلى أن يقول – بعد وصف مآل بعض أنواع الفن الأخرى – بحدة نقدية شديدة: «ولا شك في أن من يراقب هذا التبديل المفاجئ سيجد نفسه مدفوعا إلى القول بأن ما يسمعه ويشاهده ليس إلا رجعة إلى حالة من البدائية والتوحش».[9]

إلا أنه لا بد من البيان أن معاني الجمال في الإسلام، من صفاء الروح، ومنازل الإيمان، وأحوال الإحسان، لم يستفد منها جمهور كبير من أبناء الصحوة الإسلامية المعاصرة لأسباب شتى، منها اشتهار نسبة بعض مفاهيمها وألفاظها إلى المتصوفة؛ فكان أن زهد كثير من الناس فيها بسبب ما خالط بعض كتبهم من شطحات.[10] وإنما هي عبارات قرآنية أو نبوية محضة. نعم، ربما اكتسبت في سياق الاستعمال التاريخي دلالات منحرفة في بعض الأحيان، فيكون الواجب هو تحريرها منها، لا إلغاءها والتنكر لها.

إنه ما ينبغي لذلك أن يعمينا عن جمال الدين، وإنما خاطبنا الله تعالى بالجمال، وأمرنا أن نرحل إلى منازله العليا، ونسير إليها سيرا لا يفتر ولا ينقطع حتى يدركنا اليقين. لا ينبغي للمؤمن الكَيِّسِ الفَطِنِ أن تعميه غلطات بعض الناس – مهما قبحت – عن محاسن الدين، فيقنع في دينه بظواهر الألقاب ويرمي بعيدا باللباب. إذن يكون من الجاهلين، كيف والجمال هو الدين؟!

إن الصحوة الإسلامية المعاصرة لفي أشد الحاجة إلى تربية ذوقية فنية، ترهف حسها بمواطن الجمال، الموجِّهةِ لكل شيء في هذا الدين، عقيدةً وشريعة. ولقد انتبه السابقون إلى ذلك وانبهروا به فسارعوا إلى الالتحاق بقوافل المحبين. وكان منهم مُصَنِّفُون ذَوَّاقُون، نبهوا إلى هذه المعاني، من أمثال الحسن البصري والإمام المحاسبي والإمام الجنيد وابن الجوزي والإمام عبد القادر الجيلاني والإمام ابن القيم والإمام أبي عبد الله الساحلي المالقي والإمام الشاطبي والإمام أحمد زروق المغربي وغيرهم كثير، رحمهم الله أجمعين.

ألا ما أحوجنا اليوم إلى إعادة القراءة للدين، في مصادره العذبة الصافية الجميلة، قراءة تصل المسلم بالله، قبل أن تكون قراءة ينتقم بها لنفسه، من الظلم الاجتماعي، والطغيان السياسي، فيكون بتدينه عدوا للدين من حيث يدري أو لا يدري.

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾(آل عمران: 8) ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحشر: 10).

ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* جامعة السلطان المولى إسماعيل – المغرب

الهوامش

(1) يقول ولترت ستيس: «لقد نظر الاستطيقيون إلى الجمال على أنه الهدف الوحيد للفن. وهم على حق في ذلك. ولا يصح ذلك إلا إذا استخدمت كلمة "الجمال" بمعنى واسع إلى أقصى حد.» (معنى الجمال: نظرية في الاستطيقا، ص:94. ترجمة إمام عبد الفتاح إمام. نشر المجلس الأعلى للثقافة، مصر: 2000. طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.)

ثم استعمل مصطلح «الجمالية» في الأدب الحديث للدلالة على أن "الجمال" هو القيمة الأولى للنص، وأنه لا عبرة بما لم يُبْنَ على ذلك؛ إذ الوظيفة الأولى للنص هي أن يكون جميلا. (جمالية الأدب الإسلامي للأستاذ محمد إقبال عروي: ص 94–95، نشر المكتبة السلفية، الدار البيضاء، المغرب، ط: الأولى: 1986م.)

(2) تلك هي القضية التي انبنى عليها موضوع كتاب البروفسور إتيان سوريو «الجمالية عبر العصور»، ترجمة د. ميشيل عاصي، منشورات عويدات، بيروت/باريس، ط. الثانية: 1982.

(3) كان ذلك خلال سنوات الستينات من القرن الميلادي الماضي.

(4) الجمالية عبر العصور، ص 179.

(5) الجمالية عبر العصور، ص 180.

(6) مثل كتاب كشف المحجوب للإمام الهجويري، ومنطق الطير لفريد الدين العطار، وهذا من الناحية الجمالية قطعة فنية رائعة. ومثله مدارج السالكين لابن القيم، وكتابه حادي الأرواح، ونحو ذلك كثير. ومن أهم الموسوعات الجمالية في الفكر الإسلامي الحديث مجموعة: كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، ويتلوه في ذلك وارث سره الأستاذ فتح الله كولن في أغلب كتبه وعلى رأسها: «التلال الزمردية» وديوانه الشعري: «المضرب الكسور».

(7) الجمالية عبر العصور، ص 179.

(8) الجمالية عبر العصور، ص 273–274.

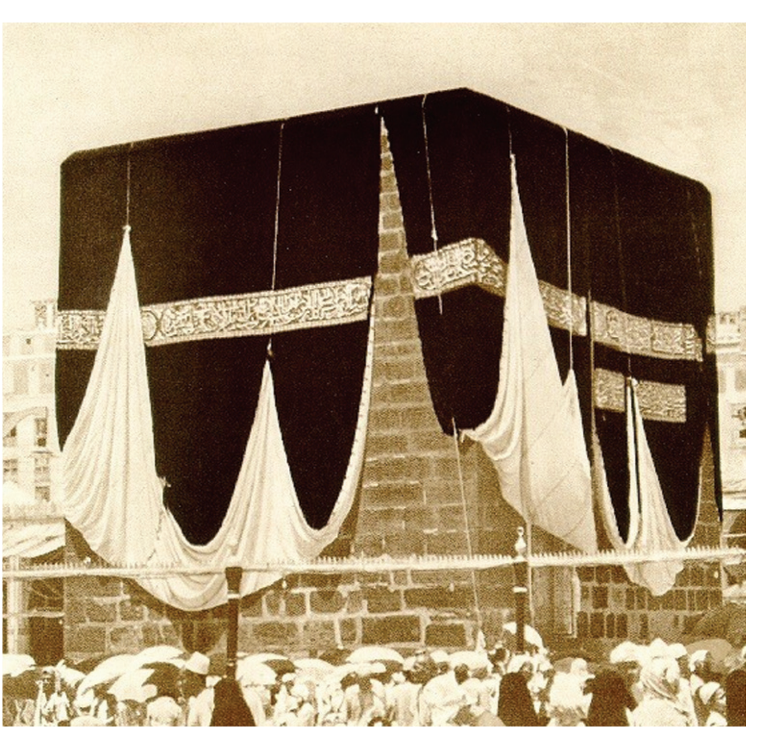
(9) الجمالية عبر العصور، ص 275–276.

(10) لقد غالى بعضهم في الهجوم على التصوف، ولم يفرقوا في أقوال القوم بين حق وباطل.

هنا تتوقف الأفكار وتصمت، وتدخل الأرواح تحت ظلال الأحاسيس، ويلف القلوبَ الشوقُ إلى الوصال.
هنا تتفتح خيالات كالورود في أعماق الإنسان لا تقبل دخول حريمها... خيالات يكاد يذوق منها صاحبها أذواق حدائق الجنة، وأذواق أصحاب الجنة واطمئنانهم ونشوتهم.

المَحمل الشريف... أشواق إلى ديار الحبيب ﷺ





نوزاد صواش*

ما إن يهل شهر رجب حتى تشمل الحركة جميع أنحاء إستانبول، لأن موعد إرسال المحمل النبوي الشريف إلى مكة المكرمة قد اقترب، ولأنه يحمل كسوة الكعبة الجديدة، ولأنه يحمل الصرة السلطانية التي تحتوي على هدايا إلى مدينة الرسول ﷺ رمزا للولاء والحب

والإخلاص. فترى المساجد وقد تزينت بأضواء براقة، وأقيمت حولها السرادقات مع موائد الطعام، وإحياء الليالي بتلاوة القرآن والدروس الدينية والأناشيد في مدح المصطفى، كما يتحدث الأئمة في المساجد عن حب الرسول ﷺ فينبعث الشوق والحنين إلى ديار الحبيب في قلوب المستمعين.

هذا، ولو دخلت قصر الخلافة أي «قصر طوب قابي» لشاهدت نفس الشعور ونفس الحيوية والنشاط حيث تُزيَّن كل أرجاء القصر، وتقام الخيام العظيمة، وتُبسط السجاجيد والبُسط، وتعلق الستائر المذهبة، وتنثر الأزهار والورود الزاهية في أنحائه حتى يتحول إلى عروس رائعة الجمال. فالقصر يستقبل اليوم الذي يتحرك فيه موكب المحمل إلى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام. وتستمر الاحتفالات حتى الثاني عشر من شهر رجب حيث تمضي الأيام باستقبال الضيوف من أعيان وعلماء أتوا من بلاد مختلفة، وإكرامهم أحسن إكرام، وإلقاء الدروس الدينية، وتلاوة القرآن الكريم والأناشيد النبوية. فالقصر في مهرجان دائم وعيد سعيد حتى ذلك اليوم.

إستانبول تودع المحمل

يدخل السلطان إلى صالة الديوان، فيقوم له الحاضرون بإجلال عظيم، ويُتلى القرآن الكريم، ويأتي أغوات الحرم بأكياس ممتلئة بسجلات الصرة السلطانية ليتم تسليمها إلى أمين الصرة الذي يختاره السلطان من العلماء أو الجند أو الأشراف، كما يتم الإعلان عما تحتويه الصرة أمام السلطان والحاضرين، ويخرج الجميع إلى ساحة القصر الكبيرة حيث يكون الموكب جاهزا للانطلاق، وهو يتألف من مئات الجمال المحملة بالهدايا، ومئات من الفرسان المدججين بالسلاح، وعلى رأسهم «جمل المحمل»، وهو جمل جميل الشكل مهيب البنية لا يستخدم لأي عمل سوى الحج، ويحمل كسوة الكعبة المعظمة والصرة السلطانية.

وتبدأ الحركة، ويبدأ صوت رخيم بتلاوة القرآن، ويمشي جمل المحمل بخطوات وئيدة فيمر من أمام السلطان، ويتبعه الموكب الكبير. ويثور الحنين إلى الأراضي المقدسة في القلوب، إذ لم يستطع أي منهم أن يزور تلك الأراضي، فيجد السلطان وأتباعه أنفسهم يسيرون خلف الموكب، ويخرج الموكب من حديقة القصر متجها إلى المرفأ.

الطريق تغص بالجماهير الذين حضروا ليعيشوا هذه اللحظات العظيمة، ويودعوا ذلك الحمل العزيز الذي يسافر إلى قرية الحبيب. وترتفع الأصوات بالأناشيد والأدعية، وتسيل الدموع على الخدود، ويبلغ الشوق إلى الحرم الشريف أقصاه. وبعد لحظات تتضاءل صورة الموكب وسط مياه البسفور على المراكب الشراعية كلما ابتعد عن الضفة الأوروبية واقترب من منطقة أسكدار في الضفة المقابلة... ويغيب تماما بعد قليل، وتعود الوجوه المودعة إلى منازلها وهي في شوق إلى اليوم الذي سيعود فيه.

وما أن يصل موكب المحمل إلى أُسكدار حتى يمم وجهه شطر ديار الشام مجتازا أراضي الأناضول مدينة تلو أخرى. أما استقبال أهل الأناضول الأوفياء للمحمل فلا تسأل عن روعته ودفء اللقاء فيه. فالموكب يسير على طريق تناثرت عليها أزاهير الحب للحبيب المصطفى ﷺ. وكلما مر على مدينة انضم إليه المزمعون على الحج من الأهالي مودعين الأحباب بدموع ملؤها الشوق والود.

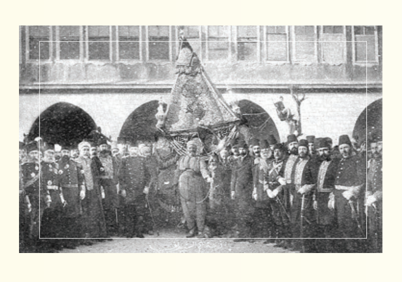
«الشام الشريف» يستقبله

أخيرا يصل الموكب بحمله العزيز ومرافقيه الأوفياء إلى «الشام الشريف»، وهو الاسم الذي أطلقه العثمانون على أراضي الشام. وتحط القافلة رحالها في دمشق الحبيبة، ملتقى قوافل الحجاج من كل أنحاء العالم. فإليها يتقاطر الحجاج من دول آسيا وجنوبي أوروبا وأفريقيا وأماكن أخرى من بلاد الإسلام، ومنها تسير الأفواج إلى الأراضي المقدسة.

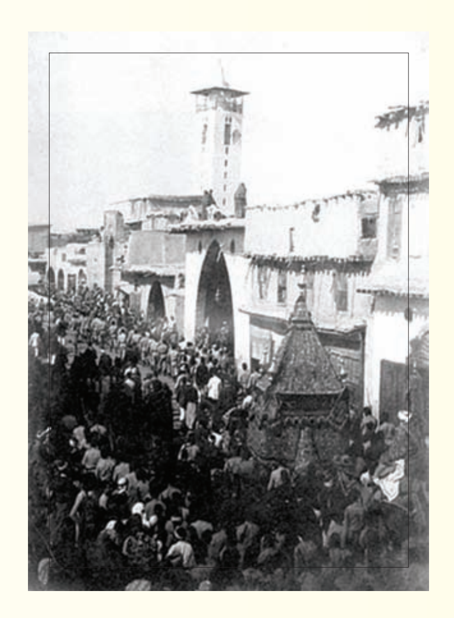
مع فرحة اليوم الأول من عيد الفطر يبدأ الشوق



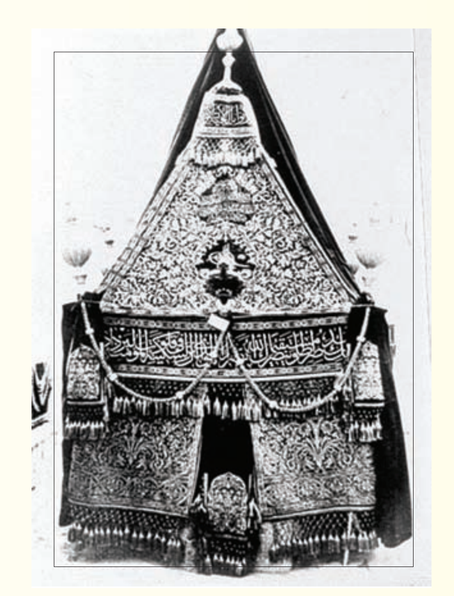




تصل القافلة المباركة إلى مكة المكرمة يوم عيد الأضحى المبارك. وليست احتفالات استقبال المحمل النبوي الشريف في مكة المكرمة بأقل ابتهاجا من احتفالات تشييعه من إستانبول و«الشام الشريف».







إلى لقاء عيد الأضحى في الأراضي المباركة، وتبدأ مراسم المحمل حيث تصطف الفرق العسكرية أمام الجامع الأموي وتؤدي التحية لوالي المدينة وقائدها العسكري، وتخرج الشموع والزيوت المهيأة لإرسالها مع موكب الحج إلى الحرمين الشريفين وسط احتفال كبير.

وفي الأيام التالية يتجه الجميع إلى القلعة حيث اللواء النبوي الشريف القريب من ضريح الصحابي الجليل أبي الدرداء رضي الله عنه، ويخرج اللواء باحترام كبير ويحمل إلى قصر الوالي في انتظار يوم الانطلاق.

ويأتي اليوم الموعود وهو اليوم الرابع من شهر شوال حيث يخرج المحمل الشريف مع اللواء السعيد والهدايا الكريمة الأخرى. ويعطي أمير الحج إشارة الانطلاق، فتبدأ الحركة ويسير المحمل الشريف وسط حشد كبير من المسؤولين والمرافقين والمودعين. يمر الموكب العظيم من باب الميدان ثم باب مصر متجها نحو قرية القدم، بينما يتهافت الناس من كل صوب يملأون الشوارع مهللين مكبرين مودعين، وأصوات المنشدين وقراء القرآن الكريم تضفي على سماء المدينة جوا روحانيا رفيعا وتثير في القلوب عواطف شجية رقيقة.

وفي قرية القدم، وهي المحطة الأخيرة قبل الإقلاع ينتظر الموكب أن تكتمل عدة السفر عشرة أيام، كما يوضع المحمل الشريف وكسوة الكعبة المعظمة والصرة السلطانية في صناديقها الخاصة وسط احتفالات كبيرة. وأخيرا تشد القافلة رحالها باسم الله ناحية الأراضي المقدسة.

الأضحى عيد الوصال

تصل القافلة المباركة إلى مكة المكرمة يوم عيد الأضحى المبارك. وليست احتفالات استقبال المحمل النبوي الشريف في مكة المكرمة بأقل ابتهاجا من احتفالات تشييعه من إستانبول و«الشام الشريف». ولم لا، وهو قادم من مقر الخلافة -وقتها-، ويحمل كسوة الكعبة وهدايا السلطان وأشواق القلوب التي لم تتمكن من زيارة بيت الله الحرام هذا العام.

وبعد أن يتم توزيع الصرة السلطانية على أماكنها المخصصة يرسل شريف مكة خطاب شكر ودعاء إلى السلطان يحمله إليه شخص يُدعى «حامل البشارة».

ولا بد أن نشير إلى أهم قطعة في هذا الموكب، ألا وهي كسوة الكعبة حيث يتولى السلطان صنعها، ويتم تبديل الكسوة الجديدة بالقديمة وسط احتفالات كبيرة، ويعود الموكب بالقديمة إلى إستانبول، وتستقبل هي الأخرى بإجلال بالغ، وتوزع قطعها على المساجد السلطانية الكبيرة وعلى العلماء والأعيان وأشراف القوم.

الصرة بدايتها ونهايتها

لقد أولى السلاطين العثمانيون مكة المكرمة ومدينة الرسول ﷺ اهتماما بالغا، ولا شك أن أكبر دليل على ذلك مواكب المحمل النبوي الشريف، أو مواكب الصرة -كما عُرفت في التاريخ العثماني-. وهو محمل كان يرسله السلطان إلى الحجاز كل عام في موسم الحج في موكب عظيم تحمله مئات الجمال، وتحيط به كتائب كثيرة من الفرسان المدججين بالسلاح مع أستار الكعبة، وهدايا ذات قيمة عالية، وصرة سلطانية كبيرة تحتوي على قطع ذهبية كثيرة ومجوهرات كريمة توزَّع على أهل تلك البلاد، وتصرف على إصلاح طرق الحج، وإعمار مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومرافق الحرم الشريف.

لقد بدأت عادة إرسال الصرة إلى الحرمين الشريفين في عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله (٩٠٨-٩٣٢م). والوثائق تشير إلى أن الفاطميين والمماليك كانوا يرسلون صرة إلى الحجاز أيضا.



وقد درج السلاطين العثمانيون على إرسال الصرة منذ بداية تأسيس الدولة العثمانية، إلا أن أول صرة تم العثور على وثيقتها في الأرشيف العثماني تعود إلى تاريخ ١٣٨٩م، وهو عهد السلطان «بيازيد الأول»، وتنص الوثيقة قائلة: «لقد صدر الأمر السلطاني بإرسال صرة بمقدار ٨٠ ألف قطعة ذهبية تنفق في مرافق الحرمين الشريفين، وتوزع على فقرائها وأشرافها وساداتها وعلمائها...».

وقد أرسل السلطان محمد الملقب بـ«محمد شلبي» ١٤ ألف قطعة ذهبية عام ١٤١٣م، وصرة أخرى تحتوي على أكياس لم يحص عددها عام ١٤٢١م.

أما السلطان «مراد الثاني» فكان قد أمر بصرف ألف قطعة ذهبية إلى السادة الأشراف المقربين إليه في إستانبول، كما وقف موارد منطقة «باليق هصار» الواقعة قرب مدينة أنقرة على أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، إضافة إلى إرساله صرة تحتوي على ٣٥٠٠٠ قطعة ذهبية كل عام. وفي وصيته العائدة لسنة ١٤٤٦م أمر بوقف ثلث أملاكه الموجودة في «مانيصا» لخدمة الحرمين الشريفين، وذلك يعني ١٠ آلاف قطعة ذهبية كل عام.

وقد أمر السلطان «محمد الفاتح» بإرسال تسعة آلاف قطعة ذهبية مع مرسوم سلطاني إلى الحجاز قام شريف مكة بقراءته على الجماهير أمام الكعبة المعظمة، وأرسل له ماء زمزم وعددا من حمائم الكعبة ردا على معروفه. وحدد السلطان بعد ذلك كمية تزيد على ٢٠٠ ألف قطعة ذهبية لخدمة الحرمين الشريفين كل سنة.

ولما أصبحت الحجاز ضمن حدود الأراضي العثمانية عام ١٥١٧م على يد السلطان «سليم الأول» أمر بتخصيص ٢٠٠ ألف قطعة ذهبية كل عام للحرمين الشريفين مع هدايا ثمينة ومواد غذائية متنوعة.

أما أكثر السلاطين إرسالا للصرة بين «آل عثمان» فهو السلطان «سليمان القانوني». ومن اللافت للنظر أنه قد أُنشئت مؤسسة جديدة في هذا العهد باسم «وراثة الصرة» حيث يرث الشخص حصة مورثه من الصرة. وإذا مات صاحب الحق ولم يكن له وارث وزعت حصته على الفقراء والمساكين.

والجدير بالذكر أن الدولة العثمانية لم تتخلَّ عن إرسال الصرة السلطانية حتى في أصعب أيامها اقتصاديا وسياسيا. فخلال الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٥ تم إرسال ١٠٧ حقائب تحتوي على ٢٤ ألف ليرة و٨٤٧ قرشا إلى أهل مكة، إلى جانب ١٩٧ حقيبة تشتمل على ٣٢ ألف ليرة و٨٨٢ قرشا مع حقيبة أخرى إلى أهل المدينة المنورة.

وعندما قام «الشريف حسين» بثورة في العام التالي انفصلت الأراضي المقدسة عن الدولة العثمانية، ورغم ذلك أصدر السلطان «وحيد الدين» مرسوما بإرسال «صرة كالماضي تُنفق على أهل مكة والمدينة وعربان الحجاز». وكانت آخر صرة في عام ١٩١٧ حيث أرسلت عبر الشام في أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن عندما انتهت الحرب بهزيمة الدولة العثمانية عادت القافلة أدراجها إلى إستانبول، ومن ثم كانت نهاية قوافل المحمل الشريف أو ما عرف بمواكب الصرة.

رحلة المحمل الشريف، رحلة بدأت من قصر طوب قابي وانتهت في الأراضي المقدسة. سفر طويل شاق، ولكن في سبيل الحبيب تهون المشاق. وديعة كريمة حملها الكرام على محامل قلوبهم تلبية للعهد ولمشاعر الوفاء. بداية عن طريق البر، ثم عن طريق البحر، ثم عبر السكة الحديدية. رغم مرور السنين لا نزال نتسمع في خيالنا وقع خطوات جمل المحمل رتيبة هادئة مطمئنة...

* كاتب وباحث تركي.

العثمانيون والأماكن المقدسة في القدس الشريف

أ.د. الصفصافي أحمد القطوري*

ما بين حرَاء والأَقْصى، ما بين مكة والقدس علاقات روحانية حَميمَة وطيدة في بناء صرح الحضارة الإسلامية. ففي الأولى كان التَّعبُّد وكان الوحي، وفي الثانية كان مهبط موكب الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. في الأقصى كانت محطة الانطلاق نحو «سدرة المنتهى» في العروج إلى السماوات العُلاَ. فالأقصى أُولى القبلتين وفيه كانت إمامة محمد ﷺ لكل الأنبياء. في مكة أول الحرمين، وأول ما يُشد إليه الرحال، وفيها حراء أول مهابط الوحي. من هنا كان الربط عند المسلمين بين كل هذه الأماكن المقدَّسة والاهتمام بها كلها على حد سواء.

الفتح العثماني

والقدس ظلت عَرَبِيَّة حتى إبان العهد العثماني الذي استمر منذ سنة ٩٢٣هـ – ١٥١٧م إلى انهيار الدولة العثمانية نهائياً في بدايات القرن العشرين. فقد كانت خاضعة للحكم المملوكي. ولما أنهى السلطان سليم الأول حكم المماليك في مصر سنة ٩٢٣هـ – ١٥١٧م دخلت القدس بدورها تحت إدارة العثمانيين. وما أن استقرت الأمور للسلطان سليم في كل من سوريا ومصر ومعهما الحرمين الشريفين والقدس الشريف حتى أصدر فرماناته وأوامره بألا تُبْنَى كنائس أو معابد جديدة في المدن والقَصَبات والقرى التابعة لهذه المناطق، بل يُحَافظ على القائم منها فعلاً، وتُمْنَح الرعاية والصيانة اللازمة لتأمين قيامها بالمهام المنوطة بها. وكان يُسمح بهدم القديم القائم منها وإعادة البناء في نفس المكان وبنفس الطراز المعماري المستخدم. وقد تمثل في ذلك بما فَعلَه سيدنا عمر الفاروق بن الخطاب في السنة الخامسة عشرة الهجرية حيث اعترف بكل الحقوق المَرْعِيَّة لكل الرعايا غير المسلمين بتعهد مكتوب. وما كان من السلطان العثماني إلاَّ أن فعل نفس الشيء حيث أصدر فرماناً عقب ضم القدس يَحْفَظ لكل الرعايا من المسيحيين واليهود حقوقهم الدينية، وأَمَّن لهم بكل مذاهبهم وطوائفهم حق ممارسة الشعائر بدون أية عوائق. وقد حدد في هذا الفرمان الذي سَطَّره قاضي القدس بخطه كل حقوقهم وطُرُق حماية هذه الحقوق ومنع أي تجاوز عليها. وهذا الفرمان موجود في «خزينة أوراق» البطريركية الأرمنية في القدس الشريف. وقد قام سركيز قاراقو الأرمني بنسخه عن الأصل الموجود في مكتبة البطريركية الأرمنية في القدس. وفيما يلي نص الترجمة عن النص التركي حيث تعذر الحصول على نصِّه العربي:

فرمان القدس الشريف

«فليعمل بموجب النيشان الهمايوني . . .

إن النيشان الشريف ، عالي الشأن للسلطان السامي ، حامل الطغراء الخاص بخاقان العالم ، وبالعون الرباني والمن السبحاني ، فالحكم بما يلي:

بعون الله تعالى ورسوله قد جئنا إلى القدس الشريف ، وفُتح بابها في يوم ٢٥ من شهر صفر الخير ، وقد قَدِم الراهب المسمى سركيز الذي هو بطريك الطائفة الأرمنية وفي مَعِيَّته سائر الرهبان والرعايا والبرايا. وقد سألنا العطايا وتمنى الإنعامات ، وأن تظل تحت تصرفهم ورعايتهم كما هو سابق وسائد لبطارقة طائفة الأرمن الذين تولوا الضبط والإشراف من القديم لما هو تحت عُهْدَتهم من الكنائس والأَدْيِرَة وأماكن الزيارة وكذا الكنائس الأخرى الواقعة في الداخل والضواحي وكذا المعابد

ومنذ العهد العمري رضي الله عنه. وكذا معاهدة حضرة السلطان المرحوم الملك صلاح الدين والأوامر الشريفة المعطاة تجعل الضبط والتصرف على كنيسة القيامة ، ومغارة بيت لحم ، وبابها الواقع في الجهة الشمالية ، والكنائس الكبرى ، وماريعقوب ودير الزيتون ، وحبس المسيح ونابلس بما فيهما من كنائس تخص سائر الأمم كالحبش والقبط والسريان للبطريك الأرمني القائم والقاطن في كنائس ماريعقوب .

وينص النيشان الهمايوني على عدم تدخل أي فرد من الملل الأخرى ، وقد مَنَحْتُ هذا النيشان الهمايوني مقرونا بالسعادة وأَمرت بما هو آت يعمل بموجبه: أن تكون السيطرة والتصرف في الكنائس الكبرى المذكورة ، والكنائس الواقعة في ضواحي وداخل البطريركية الأرمنية الكائنة في ماريعقوب ، وكذا المعابد وسائر أماكن الزيارة والأديرة التي تتبع طوائف أخرى كالحبش والقبط والسريان . فلهم ممارسة مراسمهم الدينية فيها ، وضبطها ورعايتها بأنفسهم . ولا يحق لأي مَنْ كان أن يتدخل في تنصيب أو تعيين أو عزل من يقومون بالشؤون الدينية والإشراف على الرهبان والقساوسة ، والميتروبوليد ، والبيسكوبوس وسائر الأمور الدينية متروكة لهم ممثلة في البطريركية الأرمنية وما يتبعها من كنائس ومعابد وأديرة وسائر أماكن الزيارة عندهم ، ولا يحق لأي فرد من غيرهم التدخل في أمورهم .

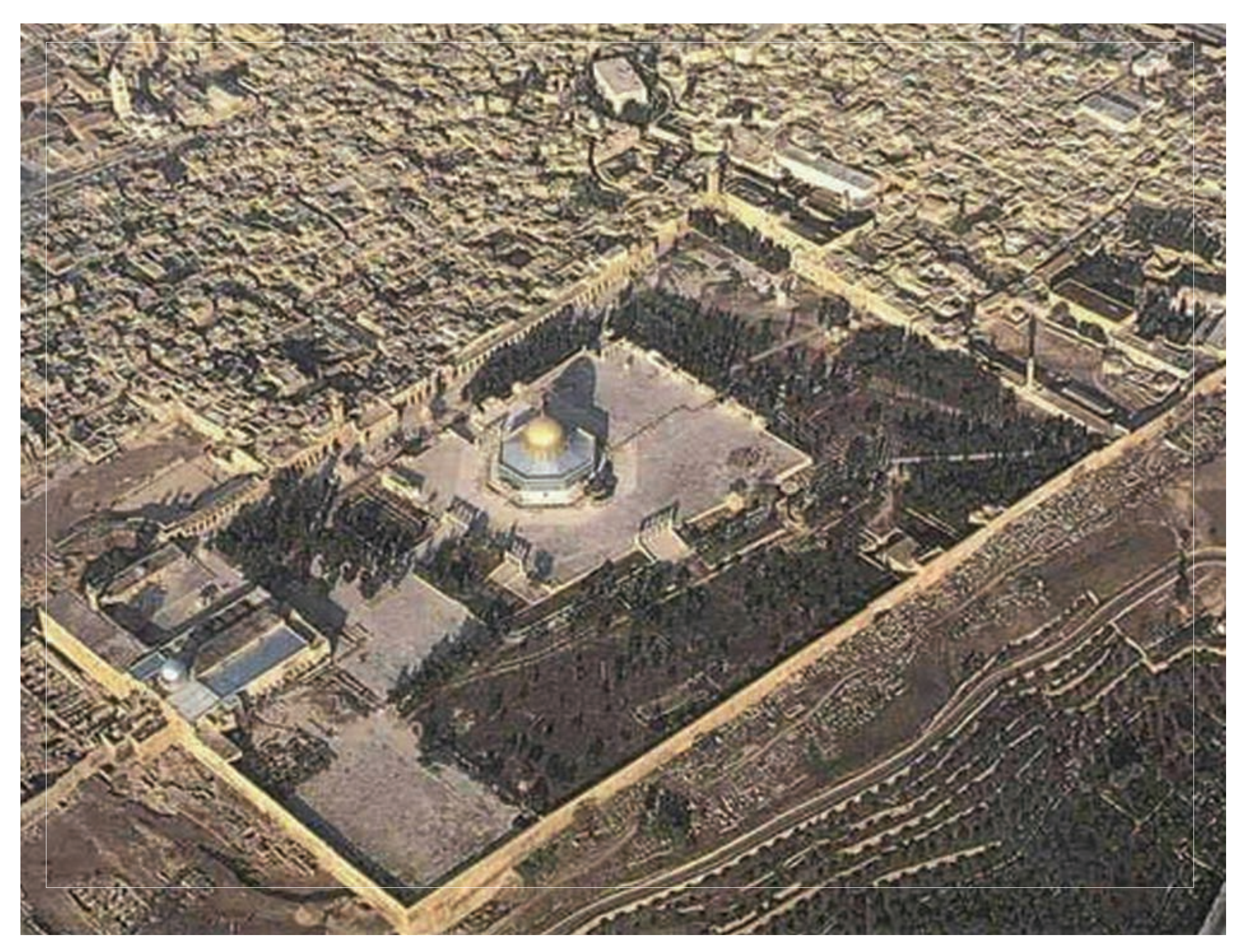
ويحق لسائر الأمم أن يدخلوا إلى كنيسة القيامة والتربة الواقعة وسطها ، وإلى مقبرة السيدة العذراء الأم مريم الواقعة في ضواحي القدس الشريف ، وإلى المغارة التي ولد فيها السيد المسيح عليه السلام في بيت لحم ، وحفظ مفتاح بابها الشمالي ، والشمعدانان الموجودان في داخل كنيسة القيامة والقناديل ، وكذا القناديل الموجودة في داخل المقبرة وعلى بابها ، والشموع التي توقد ، والبخور . والحفاظ على المراسم والعبادات التي تتم داخل كنيسة القيامة وفقاً للعنعنات والمعتقدات حتى ظهور نار الشمع المقدَّس .

فيحق لجميع الأمم الدخول والدوران حولها ، وزيارة الباب ، ورؤية الذهب والأحجار الغالية على نافذتيها ، ورؤية وزيارة المعبد الكائن بالداخل ، وزيارة كل آبار الماء ومزارات ماريوحنا الكائنة في فناء كنيسة القيامة ، وزيارة حبس المسيح الواقع بالقرب من مار يعقوب في الضواحي ، وزيارة غرف يعقوب في الضواحي ، وزيارة الغرف والمضيفات الواقعة بالقرب من مغارة بيت لحم وأضرحتها .

كما يحق للبطريركية المذكورة لطائفة الأرمن الإشراف ورعاية كافة الحدائق والبساتين ومزارع الزيتون ، وبالجملة جميع الكنائس والمعابد والأديرة والمزارات التابعة لهم ، وكل الأملاك والأوقاف الخاصة بهم ، وكل توابعهم وما يتبعهم . ولا يتم التعرض لأي شخص من الطائفة الأرمنية قادماً لزيارة الكنيسة أو بئر المياه المسمى زمزم ، ولا يتعرض أي أحد لمزارعهم أو معابدهم أو مزاراتهم ولا يمنعهم عن ذلك أي أحد .

ويعمل وفقاً لهذا النيشان السلطاني من بعد اليوم على الوجهة المشروحة ، ولا يُسمح لأي شخص من ملة أخرى التدخل في شأنهم . وعلى أولادي الأماجد أو وزرائي الأعاظم ومشايخي الكرام والقضاة والقادة وأمراء الإمارات وقادة السناجق وأمير الأمراء وضباط الانضباط والأمن ورجال بيت المال والقسَّام ومديري البلدية والزعماء وأرباب التيمار والمتصرفين وسائر حرس بابي وغيرهم ، والخلاصة على الجميع كائناً من كان ألا يتعرض لأي فرد منهم كائناً من كان ومهما كانت الأسباب ، ولا يتم التبديل أو التغيير في أي مما ذكر . وإذا ما قام أحد ما بالتدخل أو التعرض أو التبديل أو التغيير فإنه يُعَد عند الله من زمرة المجرمين والعصاة .

وليعلموا أن أوامري ونيشاني الحامل لطغرائي أنا فاتح العالم ستكون مصدَّقة ، وليعمل بفحوى ما جاء بها ، وليكن هذا علامة شريفة معتمدة . كتب في سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة» .



ها هو السلطان سليم الأول الذي وصل إلى بيت المقدس في القدس الشريف في اليوم الخامس والشعرين من صفر سنة ٩٢٣ هـ – ١٥١٧م ، ما أن مثل بين يديه البطريرك الأرمني ومرافقوه من القساوسة والرعيَّة حتى أمَّنهم وأحسن إليهم وأجزل العطاء لهم وجدد لهم العهد العُمَري ومعاهدة القائد الفذ صلاح الدين الأيوبي .

ولم يكن هذا وقفاً على القدس وحدها لقدسيتها ومكانتها ، بل امتدت هذه الرعاية والعناية إلى غيرها من الأماكن . فها هو نفس السلطان ، سليم الأول يصدر نفس الفرمان تقريباً لرهبان دير سانت كترين في سيناء المصرية . فما أن استقر به المقام في القاهرة حتى أصدر لهم في أواخر شهر جمادى الآخر سنة ٩٢٣ هـ – ١٥١٧م فرماناً يعطيهم نفس الحقوق التي منحها للبطريركية الأرمنية وللحبش والأقباط السريان في القدس . ولما كان هذا الفرمان يخرج من نطاق القدس فقد اكتفيت بالإشارة إليه .

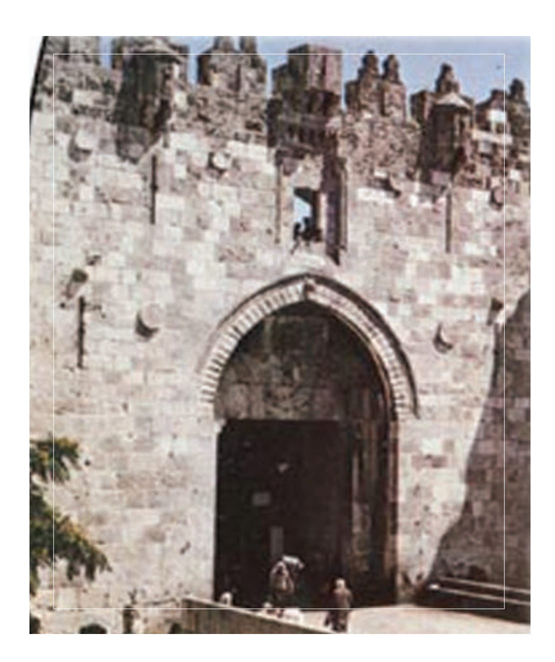
لم يثبت التاريخ ولو لمرة واحدة أن حَاصر قائد مسلم كنيسة أو معبداً ، أو أطلق ناراً ، أو منع ماءاً أو طعاماً عمن هو في داخل الكنيسة أو المعبد . لم تطارد قوات الجيش أو الشرطة أو الأمن من يلجأ إلى بيت من بيوت الله .

إن هذه الوثيقة وغيرها ظل مَعْمُولاً بها طوال فترات التاريخ ، وما زال فرمان سليم الأول محفوظاً في دير سانت كترين في سيناء . كان ذلك قبل الإحتلال الإسرائيلي لسيناء ، ولست أدري مصيره الآن .

العهد الذهبي سليمان القانوني

وما أن اعتلى السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠–١٥٦٦م) عرش السلطنة العثمانية حتى أبدى تفوقاً ملحوظاً في ميادين البناء والتشييد بنفس القدر من المهارة في ميادين سن القوانين . فما هي إلاَّ خمس وخمسون سنة حتى كانت البلاد العربية كلها حتى تلمسان المغربية ضمن حدود الدولة العثمانية .

وقد أغدق من غنائمه على الحرمين الشريفين والقدس الشريف الشيء الكثير ، فغطى الجدران الخارجية لجامع قُبَّة الصخرة من جديد بالبلاطات الخزفية الفاخرة بدلاً من الموزاييق الذي كان يحتاج إلى الترميم من حين لآخر ، وكانت هذه التغيطة الخزفية الزرقاء بدلاً من الخليط بين الأخضر والأصفر ، مما أعطى الجامع رونقاً وبهاء ظل قروناً عديدة . وكسا القسم الأسفل من الجدران بالرخام بدلاً من الموزاييق أيضاً . وأحاط المبنى من أعلى بحزام من الخزف الأزرق الغامق الذي تتخلله كتابات بالحروف البيضاء . وأمر بتركيب زجاج ملوَّن على

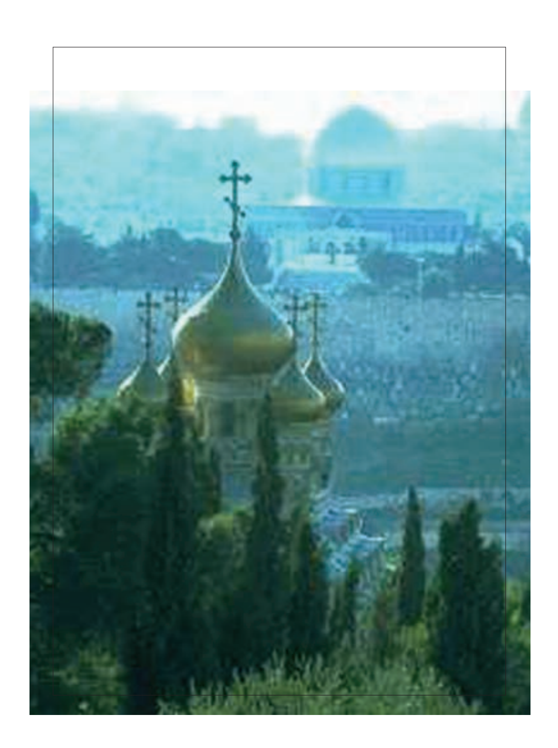


النوافذ التي استقرت داخل تجاويف من الجبس والجص الأبيض الناصع . كما أمر سليمان القانوني بترميم كل أسوار المدينة، وأعطاها الشكل الذي ما زال هو السائد حتى العهد القريب . وبهذا فقد ترك قسماً من التبة الغربية خارج الأسوار . ولقد كانت كنيسة مرقد عيسى عليه السلام تخلو من الأجراس حتى سنة ٩٥٢هـ – ١٥٤٥م، فأمر السلطان سليمان بأن تُعلق بها الأجراس . وفي سنة ٩٦٣هـ – ١٥٥٥م كان هناك بناء صغير فوق الضريح في القسم الدائري من كنيسة القيامة، فأمر بإقامة مبنى آخر منتظم ويليق بالمقام بدلاً من القديم .

وكانت الكنيسة مقسمة فيما بين المذاهب المسيحية التي لم تكن على اتفاق أو وفاق فيما بينها . وكانت هذه التقسيمات تحول دون إجراء الترميمات والدعامات اللازمة التي تمكن من إقامة برج للأجراس فوق قبة المبنى، ولم يتم ذلك إلا سنة ١١٣٢هـ – ١٧١٩م . وبأمر من الحكومة تم الحفاظ على الرسوم والأشكال والطرز الموجودة على ما هي عليه أثناء أعمال بناء البرج والترميمات اللازمة . وخوفاً من التشويه تم صرف النظر عن التجديدات التي كانت ستجرى في كنيسة القيامة . وفي سنة ١٢٢٣هـ – ١٨٠٨م اندلع حريق في الكنيسة الأرمنية مما أدى إلى تخريب القسم الغربي من الكنيسة بالكامل . وتمت الموافقة على أن يقوم الأرمن بأنفسهم بأعمال الترميم والتجديد اللازم . وقد أصدر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ – ١٨٣٩م) فرماناً للأرمن بهذا الصدد . وطبقاً لكتابات موجودة، فقد تم تجديد التذهيب الموجود في جامع قبة الصخرة، وأمر السلطان بترميم الجامع من الخارج . ولولا الخلافات المذهبية بين الطوائف المسيحية لتم تجديد كنيسة مرقد عيسى، ولتم إزالة المباني العشوائية، ولجددت الزخارف التي على جدرانها منذ أمد بعيد، ولأمكن استخدام الأجزاء المتبقية وأعيدت الكنيسة إلى ما كانت عليه أثناء الحروب الصليبية .



لقد شهد القرن التاسع عشر أحداثاً وقلاقل أخرجت فلسطين عامة والقدس خاصة من الهدوء والسكون الذي كان يعمها . فإن نابليون بونابرت (١٧٦٩ – ١٢٨١م) الذي ظل محاصراً في مصر، قام بالهجوم على فلسطين . وكما أنه حاصر عكا فقد زج ببعض من القوات الفرنسية لمهاجمة القدس، وتقاتلت القوات العثمانية والفرنسية أمام يزرائيل، أي أمام مرج بن عامر . واضطرت القوات الفرنسية إلى التراجع . ثم تعرضت فلسطين عامة والقدس خاصة إلى استيلاء جيوش محمد على باشا سنة ١٨٣١م . ودخلت هذه المدينة تحت الحكم المصري حتى تم حل المسألة المصرية . وعقب جلوس السلطان عبد الحميد الأول على العرش، مارست الدول العظمى آنذاك ضغوطاً . وفي النهاية انضمت فرنسا إلى هذه الدول، وتم عقد معاهدة سنة ١٢٥٦هـ – ١٨٤٠م أجبرت مصر بموجبها على إخلاء فلسطين . ومارست إنجلترا والنمسا ضغوطاً ملموسة لإعادة القدس تحت الحكم العثماني . واستمر الوضع على هذا المنوال حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . ولكن خلال المرحلة الأخيرة من هذه الحرب أي في الثامن من كانون الأول سنة ١٣٣٣هـ – نهاية ١٩١٧م احتُلَّت القدس من قبل الإنجليز . وهكذا انتقلت هذه المدينة المقدسة التي كانت مركزاً لمتصرفية مستقلة خلال العصر العثماني إلى الإدارة الإنجليزية، وظلت هكذا حتى سنة ١٣٦٨هـ – ١٩٤٨م .



* جامعة عين شمس – مصر .

وردة المدينة المنورة

م.فتح الله كولن

يا وردة روحي... يا ندى قلبي... يا حبَّة فؤادي
أنا الذاكر العميد... والهائم الشريد...
قلبي مزار طيفك... وروحي ملعب سرابكِ
إنّه ما زال يهدهد شجوني... ويكفكف دموعي
ذكراكِ يمسح من ذاكرتي كُلَّ شيءٍ سواك...
فليغبْ كُلُّ شيءٍ إلاّكِ

أنا مذاب عشق... أتقلب في عشقي...
في قيامي وقعودي... ويقظتي ومنامي...
أنا روح هائم في أفق العلاء أحلق
كيف الوصول إليك وأنتَ فوقَ الفوق
ووراء الوراء...؟
حبذا العشق لو يستطيع

سيدي ومولاي... التفتْ إليّ...
لمحة منك تكفيني... قلبي بلظى الفراق
يتحرق... أنينه ملأ الدنيا... وحنينه
جاوز السبع الطباق... جُدْ عليَّ...
بالوصولِ جُدْ عليَّ... متى يا سيدي...؟
متى...؟

كقلب الطير قلبي... ما أن يَذكر اسمك
حتى يبدأ بالخفقان
فامنن عليّ بريشة من جناحك
لكي أطير إليك... وأحلق وراءك أبدا
كقلب الطير قلبي... ما أن يذكر اسمك
حتى يبدأ بالخفقان

يا وردة حوّلت الصحراء القاحلة إلى جنان
أشرقي على قلبي بألوانك الساحرة
آن الأوان، لتكفكفي عيوني الدامعة
يا وردة حولت الصحراء القاحلة إلى جنان

مجنونك أنا، آه، خادمك أنا
إن رميتَ بجمرة عشق في قلبي
أججتْ جوانحي وكياني
وأنقذَتْني من هذه الرؤيا السوداء
الفارغة من محياك الوضيء
مجنونك أنا، آه، خادمك أنا

عقلي يذكرني بأيام الفراق
فيسبل على روحي سدف الظلام
سيدي متى تكشف عن وجهك الصبوح؟!
فالشمس تميل إلى الغروب،
عقلي يذكرني بأيام الفراق...

آه في الفصل الأخير من كتاب حياتي
آهٍ لو غدا غروبي شروقاً
وقلبي مفعماً بأزهى ألوان عالمك المضيء
حيث ترتفع أصوات الدفوف وترانيم الناي
في كل مكان...
آه، لو غدا غروبي شروقا...

* * *

- تستعمل الوردة في الأدب التركي رمزا للرسول ﷺ.
- من ديوان «المضرب المكسور» للأستاذ محمد فتح الله كولن. ترجمة: نوزاد صواش، أديب إبراهيم الدباغ.

رمضان وفلسفة الصوم


أديب إبراهيم الدباغ *

إنَّ الجانب السطحي من الزمن هو جزءه الميت الخالي من أية فاعلية إنسانية خلاَّقة، في حين أنَّ جُزءَهُ الثاني الأكثر عمقاً هو المعنيُّ باهتمامات المسلم الجادّ الذي يؤرقه أنْ تمضي لحظات الزمن من دون أنْ يُودِعَهَا شيئاً من آثارهِ التَّعَبُّديةِ الخَلاّقة.

ومن هنا جاء هذا الارتباط الخفي المتين بين الزمن والعبادات التي يقدمها المسلم بين يدي الله تعالى. فالصلوات الخمس، صلوات مرتبطة بخمسة مفاصل زمانية في اليوم والليلة، وكذلك الزكاة يرتبط فعلها التعبُّدي بالحَوْلِ الذي يحول على المال الذي يُرادُ تزكيته، أمّا الحجُّ فهو شعيرة تعبدية زمانية ومكانية في الوقت نفسه، وأما الصيام فزمانه شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن.

فرمضان هو العمق الزماني الذي تشتَدُّ فيه القوى الحيّة في نفس الإنسان المسلم. ولا طريق إلى نفسه أقصر من رمضان لكي يشتَدَّ غَوْصُه في خوالجها الدفينة، والتعرُّف على منابع القوة والضعف فيها. إنَّه يزيدنا استنارةً وفهماً وإدراكاً؛ ولم يودع رَبُّ العالمين من أسراره المكنونة في العبادات ما أودعه منها في الصيام. وقد أشار تعالى إلى ذلك في الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أَجزي به».

ولئن كان لكل شيء روح يرتعش بالحياة مهما كان خفياً وصامتاً ﴿وإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤) فَإِنَّ للزمن كذلك روحه، وروح الزمن هو «شهر رمضان». ولأنه روح الزمن فقد اختاره الله تعالى زماناً لنزول القرآن فيه، هذا القرآن الذي هو روح الوجود، فالقرآن رُوحٌ من رَوْحِ الله، نزل به الروح الأمين، على روح هو أنزه الأرواح وأشرفها هو روح محمد ﷺ، –أو إنْ شئتَ قلتَ «قلبه»– في شهر هو روح الأزمنة والشهور. فهو –أي القرآن– نور من نور، نزل به النور، على قلب هو نور، في شهر النور.

ومن حق هذا الشهر النوراني أن يحفز المسلم لكي يستبق نفسه روحياً، وأنْ يَمُدَّ يده للقوى الإيمانية الموجودة في أعماقه ليساعدها على النهوض به، وأنْ يكون يقظاً للقوة الدافعة فيه من أجل أن يلحق بها ويلازمها في رؤاها وتدافعها نحو الأعلى والأنزه من الحياة، والأذكى من العقل، والأعمق من التَّعَبُّدِ، ليصبح الاستثناء في هذا العالم المائج بالغفلة عن الله الذي يزداد تدحرجه من قمة إنسانيته نحو قاع من حيوانية الشهوات، ومن ضلالات القلب والوجدان، ومن عدميات الشرور والآثام.

وبديهي أن صوم رمضان هو عمل تعبُّدِيٌّ يبتغي المسلم من ورائه تزكية نفسه ورضى رَبهِ، غير أنه يمكن أن يكون بمثابة صيحة احتجاج صامت يطلقها المسلم في وجه فساد العالم وضلاله، وجبروته وقهره، وانحرافه عن جادَّة الحق والحقيقة، وصرخة تنبيه لتلك الأرواح الضالّة والجافَّة التي يمكن أَنْ تشتعل كالهشيم عند أقلِ شرارة.

إن رمضان وحده هو القادر على أَنْ يبدد جَهَامَة الزمن المتراخي الكسول، ويغير الأزمان والفصول، فتغدو كُلُّهَا ربيعاً إلهيّاً عطراً يفوح منه رَوْحُ الله وريحان رسوله ﷺ.

فرمضان كَوْنٌ نورانيٌ يدور في سماء الصائم مُولّداً فيه أضْوَأَ الخواطر، وأَنْزَهَ الأفكار. أما ذلك الشيء الدموي الذي يبدو ملازماً لبعض العقول فسرعان ما تغسله التّقوى، وتمحوه التَّوْبَةُ.

وكما أن الكون يرفض الفراغ في أجزائه ومفاصله، فهو يرفض كذلك الفراغ في روح الإنسان، لكونه جزءً لا يتجزأ من الكون.

فما لم تمتلئ النفس بتاريخ عظيم من صور كفاحها الارتقائي في سلالم المعرفة الإلهية، فإنَّ تاريخ هذه النفس سيكون مفجعاً ومأساوياً، وربما ظلَّت تعاني من المرض والوهَن حتى تموت في قَفْرٍ بوار من الفراغ.

فرمضان بحد ذاته - زماناً وتاريخاً - هو عالَم مفعم بأعظم صور التجارب الكفاحية الارتقائية لمعرفة الله وتوحيده وعبادته. وأكاد أجزم أنَّ ما من نصر عرفه المسلمون على مدى تاريخهم الطويل إلاَّ وهو صنيع رمضاني، حيث يحفل بصور رائعة من بطولات المسلمين الأوائل منذ «بدر» إلى «فتح مكة» إلى آخر الانتصارات الأخرى.

فرمضان زمن البطولات الإيمانية أينما كان موضع هذه البطولات سواء في النفس أو خارج النفس، فهو -رمضان- سلسلة مترابطة من هذه اللحظات الكفاحية التي تكاد تكون «لازمانية» لأنها فوق كل منطق زماني أو مكاني.

وتظلُّ روح الصائم مترعة بأخيلة «العالم الآخر»، حتى لكأنها بغيوبها أقرب إليه من الدنيا بشهودها.

فدقَّات دقائق العمر في رمضان ليست كدقَّاتها في غير رمضان، فالصائم يتلقى مع هذه الدقات؛ دقة من بعد دقَّة، دَفعةَ نورٍ من بعد دفعة، من قنوات غيبية «ماورائية»، تفرغ تيارها فيه فتزيده شفافية وتبصرة وتقرباً من مولاه. فيا لمعين رمضان، كم من قلبٍ مظلم اغتسل به فعاد نقياً كالثلج، وكم من ضمير موقور بكل بوائق الدنيا انغمس فيه فعاد طاهراً خالصاً كيوم ولدته أُمُّهُ.

فالمسلم الذي لا يخرج من رمضان بزَخَّارٍ من المدارك الروحية الجديدة عليه أنْ يعلن -خجلاً- عن إفلاسه الروحي، وينكفئ على نفسه يبكيها دماً، وينوح عليها نواح الثكلى، لأنه الوتر النشاز الأكثر قبحاً ونشوزاً في موسيقية رمضان الصافية الجمال، والمناكفُ الأشدُّ عناداً للمشيئة الكونية الانسجامية التوافقية بين جزئيات الأشياء وكلياتها. فما من أحد سوى رمضان كان قادراً على أنْ يَحِدَّ بصيرته ليرى أعمق وأشمل وأبعد.

إنَّ إنساناً يستعصي على رمضان فلا يتأثر به هو إنسان صعب وصلد مثيرٌ للإشفاق، سُرعان ما يسقط بين شدقي الدنيا التي تلتهم كُلَّ يوم كتلاً جديدة من البشر.

وعجباً لإنسان لا يثير رمضان فضوله الفكري، وعجباً لإنسان لا يقوى رمضان أنْ يقدح شرارة في وعيه الباطني، وعجباً لإنسان لا يستفز رمضان عقله وحِسَّه وشعوره...!

يا عشاق الليل... يا واجدون.. يا مشتاقون...

يا متفردون... يا متوحدون... يا شعراء...

يا نُسَّاك... يا زهاد... يا عُبَّاد...

هيًّا... تَعَالَوا... أَقْبِلوا...

هذه ليالي رمضان البهية..

تَعَالَوا املأوا كؤوسكم من أنوارها...

ترشفوا رحيق الوصال...

وَبلُّوا حُرْقة الفؤاد...

وَاسْقُوا ظَمأَ الروح...!

يا ليالي رمضان... يا دُرَّة الليالي...

يا لَأْلاءةً يا وَضَّاءَةً... يا ضحيانة...

يا شلاَّل نور... يا سَنى القلب...

يا نَدى الفؤاد... يا ينبوع إيمان...

ودفْق رحمة وحنان...

ما نام عنكِ إلاَّ ميت...

وما سَهَى عنكِ إلاَّ محروم...

وما عَافَ شرابَكِ إلاَّ مجنون...

يا ليلة القدر.. يا خيراً من ألف شهر...

حنانيك يا ليلة القدر...

ضُمينَا إليك... عانقينا بقوة...

خذينا من أنفسنا إلى نفسكِ...

اكنفينا بكَنَفَكِ... واسدلي أستار سرادقك علينا...

امسحي الجراح عن أرواحنا... وآسي آلام قلوبنا...

وافتحي لنا طاقة الدعاء في السماء ليمُرّ منها دُعَاؤنا...

ويمضي من خلالها تضرُّعُنَا..!

أنتِ - يا ليلة القدر - والقرآن قرينان...

ما ذكرناكِ إلاَّ ذكرنا القرآن...

وما تلونا القرآن إلاَّ ذكرناك...

شَرُفْتِ بالقرآن... وعَلاَ قَدْرُكَ بنزوله فيكِ...

وإننا لنطمع أن نكون عتقاء ليلتك هذه من النار.

فأول رمضان رحمة... وأوسطه مغفرة... وآخره عِتْقٌ من النار، كما جاء في الحديث الشريف.

اللّهم -يا حبيب التوابين- اعتقنا من النار، ويا مجير الخائفين باعِدْ بيننا وبين النار كما باعدتَ بين المشرق والمغرب، يا ربُّ يا الله.

* كاتب وباحث عراقي.

حقيقة

الجهاد... والقتال... والإرهاب.

د. محمد عمارة *

هناك خلط كبير وشديد بين مضامين هذه المصطلحات الثلاثة: الجهاد... والقتال... والإرهاب.

وهذا الخلط هو أشد ما يكون في هذه الحرب السياسية والفكرية والدينية والإعلامية الكبرى التي تشنها دوائر غربية متنفذة ضد الإسلام وأمته وحضارته وعالمه، ليس فقط منذ «قارعة» ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م التي وقعت بأمريكا، وإنما قبل هذه القارعة بعقود وربما بقرون. لكن هذه القارعة قد تصاعدت بهذه الحملة، ومن ثم بهذا الخلط بين مفاهيم هذه المصطلحات تصاعداً غير مسبوق في تاريخ علاقات الغرب بالشرق، والغربيين بالشرقيين.

ولأن النظر إلى «الآخر» من خلال «الذات» هو عيب شائع في الدراسات المقارنة بين الديانات والثقافات والحضارات، لأنه يؤدي إلى صب «الآخر» في قوالب «الذات»، وتجاهل -ومن ثم- إلغاء الفروق بين الديانات والثقافات والحضارات، وذلك بدلاً من التمييز بين «الأشباه والنظائر» التي تجمع النماذج الثقافية في موضوع الدراسة، وبين «الفروق» التي تمايز بينها.. كان هذا المنهاج الأحادي الجانب السبب في كثير من الخلط الذي يصيب مضامين العديد من المصطلحات.

صحيح أنه لا مشاحة في استخدام المصطلحات من قِبل أهل الحضارات المختلفة والديانات المتعددة والثقافات المتمايزة، لكن هناك مشاحة أكيدة في المضامين والمفاهيم والمحتويات التي تُفهم لدى كل فريق من ذات المصطلحات. فالمصطلحات بمثابة الأوعية يستخدمها ويتداولها الجميع، لكن محتويات هذه الأوعية (مضامين المصطلحات) تتفاوت وتتغاير وتتمايز بل وقد تتناقض لدى أصحاب الأنساق الفكرية المختلفة رغم وحدة المصطلحات. كذلك الحال مع مصطلحات الجهاد والقتال والإرهاب.

الحرب الدينية المقدسة

باستثناء قطاع محدود من العلماء الغربيين الذين درسوا الإسلام وحضارته وتاريخه وفق موضوعية الدراسات المقارنة، والذين تحررت ضمائرهم من قيود المقاصد «الإمبريالية» الغربية، فإن الكثيرين من الذين قاموا بدراسة الحضارة الإسلامية وتاريخ المسلمين –سواء بسوء فهم أو سوء نية– قد وقعوا في خطإ النظر إلى «الذات الإسلامية» من خلال منظار «المعايير» التي حكمت مسيرة الحضارة الغربية، والكهانة الكنسية للنصرانية الغربية، والتاريخ الحضاري الغربي، وما شهده من صراعات.

فإذا ذُكرت الخلافة الإسلامية –وهي دولة مدنية مرجعيتها الشريعة الإسلامية– قفز إلى مخيلتهم كهانة الدولة الكنسية الأوربية التي حكمت بالحق الإلهي والتفويض السماوي. وإذا ذُكر الحق في المواطنة، لم يتصوروه إلا قائماً على أنقاض الدين وشريعته وفي ظلال العلمانية واللادينية. وإذا ذُكر الدين، لم يتصوروه إلا علاقة فردية بين الإنسان وخالقه تقف عند خلاص الروح ومملكة السماء، لا علاقة لها بهذا العالم، لأنها تدع ما لقيصر لقيصر، مكتفية بما لله لله.

وانطلاقاً من النظر إلى «الآخر الإسلامي» من خلال منظار «الذات الغربية» حسب هؤلاء الغربيون –ومعهم مثقفونا المتغربون– الجهاد الإسلامي «حرباً دينية مقدسة» ضد أصحاب الديانات الأخرى تكون معايير البراء والعداء والصراع فيها هي الاختلافات في المعتقدات.

وانطلاقاً من هذا النموذج «الحضاري والتاريخي»، ومن خلال هذا المنظار الغربي نظر كثير من المستشرقين الغربيين إلى الجهاد الذي تحدث عنه القرآن الكريم والذي جعلته السنة النبوية ذروة سنام الإسلام.

حقيقة الجهاد الإسلامي

إن الجهاد الإسلامي ليس حرباً دينية مقدسة، لأن الإسلام ينكر ويستنكر أي حرب دينية. فالإيمان الإسلامي تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، وهو سر بين المؤمن وبين خالقه لا يتأتى إلا بالفهم والعلم والإقناع والاقتناع، ولا يمكن أن يكون ثمرة لأي لون من ألوان الإكراه فضلاً عن أن يكون هذا الإكراه عنفاً قتاليا. ولذلك قرر القرآن الكريم القاعدة المحكمة والحاكمة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة: ٢٥٦) والتي لا تعني فقط «النهي» عن الإكراه في الدين، وإنما تعني أيضاً «نفي» أن يكون هناك دين أو تدين عن طريق الإكراه. إذ الإكراه يثمر «نفاقاً» وهو أخطر من «الشرك» الصراح و «الكفر» البواح، ولا يمكن أن يثمر «إيماناً» بحال من الأحوال. ولذلك شاعت في القرآن الكريم الآيات التي تقول للمخالفين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦)، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩) والتي تحدد مهمة الرسالة في الاعتقاد: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ﴾ (المائدة:٩٩)، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢٢).

وإذا كان الخلط بين الجهاد الإسلامي وبين الحرب الدينية المقدسة هو أثر من آثار سوء الفهم للإسلام، أو سوء النية في تصوير الإسلام، فإن هناك خطأ آخر يقع فيه الذين يختزلون الجهاد الإسلامي في القتال الذي تحدث عنه القرآن الكريم ومارسه المسلمون في عصر النبوة وعلى امتداد تاريخ الإسلام.

ذلك أن الجهاد الإسلامي الذي هو فريضة إسلامية أعم من القتال الذي شرعه الإسلام. فكل قتال جهاد وليس كل جهاد قتالاً، إذ القتال هو الجانب العنيف من الجهاد وليس كل الجهاد.

إن الجهاد في اصطلاح العربية كما جاء في «لسان العرب» لابن منظور هو: «استفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل». فهو لا يقف عند «الفعل» فضلاً عن أن يكون هذا «الفعل» فقط هو «الفعل العنيف» (الحرب) دون سواه.

والجهاد في الاصطلاح القرآني: «هو بذل الوسع في المدافعة والمغالبة» في كل ميادين المدافعة والمغالبة، أي في كل ميادين الحياة، وليس فقط في ميادين القتال. وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن الكريم ورد مراداً به بذل الوسع في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها. وسبيل الدعوة الإسلامية هو الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وليس بالقتال والإكراه والحرب الدينية المقدسة. فميادين الجهاد الإسلامي –الأكبر والأعظم والأغلب– هي عوالم الأفكار والحوار.

فبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد في ميادين العلم والتعلم والتعليم هو جهاد؛ وبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد في عمران الأرض نهوضاً بأمانة الاستخلاف الإلهي للإنسان هو جهاد؛ بل إن الرفق بالإنسان والحيوان والنبات والجماد –الطبيعة– هو جهاد؛ وكذلك البر والإحسان إلى الوالدين والأقربين وأولي الأرحام هو جهاد. كما أن الخشية لله ومراقبته وتقواه والتبتل إليه هي قمة من قمم الجهاد الذي فرضه الإسلام؛ والكلمة الصادقة جهاد.

بل لقد جعلت السنة النبوية –وهي البيان النبوي للبلاغ القرآني– من أفعال القلوب –وليس فقط الأيدي والألسنة– ميدانا من ميادين الجهاد الإسلامي: «فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن». (رواه مسلم)

ومثل ذلك حراسة الوطن والمرابطة على ثغور دار الإسلام –كل الثغور– هي جهاد يكون أصحابها أول من يدخل الجنة من خلق الله.

كذلك جعلت السنة النبوية الحج إلى بيت الله الحرام –وفيه التجرد من الدنيا وقوّتها، بل وزينتها– والتعايش السلمي حتى مع الهوان، وكل أنواع الأحياء والنباتات. . . جعلت السنة النبوية هذا الحج ميداناً

من ميادين الجهاد الإسلامي.

تلك هي حقيقة الجهاد الإسلامي الذي هو بذل الجهد واستفراغ الوسع والطاقة في أي ميدان من ميادين الجهاد على امتداد هذه الميادين واتساعها وتنوعها، وليس فقط هو القتال، فضلاً عن أن يكون الحرب الدينية المقدسة.

ولهذه الحقيقة كان الجهاد الإسلامي فريضة لازمة على كل مسلم ومسلمة، لأنه مستطاع لكل المكلفين وفق القدرات التي امتلكها ويمتلكها هؤلاء المكلفون، وفي أي ميدان يستطيع المكلف أن يبذل جهده فيه بسائر ميادين العبادات والمعاملات؛ بينما كان القتال الذي هو شعبة من شعب الجهاد مشروطاً بشروط، وله ميادين محددة، ضبطها القرآن الكريم في الآيات التي تحدثت عن القتال.

تلك هي حقيقة الجهاد الذي فرضه الله وجعله ذروة سنام الإسلام، والذي جاهده المسلمون -ولا يزالون- على امتداد تاريخ الإسلام، والذي يكون جهاداً كبيراً عندما يكون فقهاً ووعياً وحواراً بالحكمة والموعظة الحسنة انطلاقاً من القرآن الكريم: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ (الفرقان:٥٢).

حقيقة القتال في الإسلام

وإذا كان الجهاد في الإسلام أعم من القتال، فإن القتال الذي هو الجهاد العنيف، والذي هو شعبة واحدة من الشعب السلمية التي لا تُحصى للجهاد، متميزة ثمرته -وهي القتل- عن الموت الطبيعي. فالموت: هو فوْتُ الحياة، بينما القتل: هو إزالة الروح وإزهاقها، وفوت الحياة بفعل فاعل من الخارج يتولى هذا الإزهاق.

وليس هناك شك -بل ولا غرابة- في أن نجد في الإسلام تشريعاً مضبوطاً يجوّز القتال أو يوجبه في بعض الحالات، ذلك أن الإسلام دين ودولة، وأمة ووطن، واجتماع ونظام، فالدين في الإسلام لا بد لإقامته من وطن يقام فيه، لأن هذا الدين الإسلامي ليس مجرد تكاليف فردية، يستطيع المكلف بها أن يقيمها بمعزل عن الناس، أو بإدارة الظهر للناس، وإنما فيه -إلى جانب التكاليف الفردية- تكاليف اجتماعية لا تؤدى إلا في أمة، وجماعة، ونظام، ومؤسسات، وسلطة، واجتماع؛ أي لا بد له من وطن ودولة. وهذه التكاليف الاجتماعية -والكفائية- هي آكد وأهم من التكاليف الفردية، لأن الإثم في التخلف عن التكليف الفردي يقع على الفرد فقط، بينما إثم التخلف عن التكليف الجماعي والاجتماعي -الكفائي- يقع على الأمة جمعاء. بل إن أغلب التكاليف الفردية في الإسلام تُؤدّى وتقام في جماعة، وثوابها في الجماعة أضعاف أضعاف إقامتها خارج الجماعة.

ولهذه الحقيقة -أيضاً- رفع الإسلام قيمة الحفاظ على حرية الوطن واستقلاله وسيادته، وحق المواطن - بل واجبه- في أن يعيش حراً في وطن حر. . . رفع هذه القيمة إلى مقام الحياة.

ولأن هذا هو مقام الوطن وضرورته لإقامة دين الإسلام، كان الجهاد القتالي وارداً، وأحياناً واجباً، للحفاظ على الوعاء -الوطن- الذي بدونه لا يُقام كامل الإسلام.

فلا بد لإقامة الإسلام من وطن، الأمر الذي يجعل القتال لحماية حرية هذا الوطن -التي هي حرية مواطنيه- وارداً في شريعة الإسلام. فالحفاظ على الدين هو ذروة سنام مقاصد الشريعة الإسلامية. والحفاظ على حرية الوطن الإسلامي هو الشرط لإقامة الدين والقيام بأمانة العمران التي هي المهمة العظمى من وراء استخلاف الله لجنس الإنسان ولذلك وقف الإسلام بالقتال -إذناً وأمراً وتحريضاً- فقط عند:

١- الحفاظ على الدين، وحرية الدعوة إليه، وتحرير ضمائر المؤمنين به من الفتنة والإكراه.

٢- الحفاظ على الوطن، وصيانة حريته وحرية أهله من العدوان.

فالقتال في الإسلام هو الاستثناء الذي لا يجوز اللجوء إليه إلا لمدافعة الذين يفتنون المسلمين في دينهم، أو يخرجونهم من ديارهم. ولقد كان منهاج الدعوة الإسلامية التجسيد لهذا المنهاج.

ففي البداية وبعد ما تعرض له المسلمون من أذى في عقيدتهم، وفتنة عن دينهم، واضطهاد تصاعد حتى اقتلعهم من وطنهم (مكة)، وجعلهم يهاجرون إلى يثربَ (المدينة)، بعد هجرة العديدين منهم إلى الحبشة؛ أذن الله -مجرد إذن- للمؤمنين في القتال. (الحج: ٣٨-٤٠) ولقد كان الإخراج من الديار، والفتنة في الدين الأسباب التي ذكرها القرآن الكريم في كل الآيات التي شرعت لهذا القتال.

وعندما تطور الحال من «الإذن» في القتال إلى «الأمر» به، جاء القرآن الكريم ليضع الإخراج من الديار سبباً لهذا الأمر. فهو قتال دفاعي ضد الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم، وفتنوهم في دينهم لتحرير الوطن الذي سلبه المشركون من المسلمين ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ (البقرة:١٩٠-١٩٢).

ذلك لأن منهاج الشريعة الإسلامية في الدعوة إلى الله وإلى دينه ليس القتال، وإنما هو الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

بل قد تميز الإسلام في هذا الميدان برفضه فلسفة «الصراع»، لأنه يؤدي إلى أن يصرع القوي الضعيف فيزيله وينهي التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف، التي هي سنة من سنن الله في سائر عوالم المخلوقات. رفض الإسلام فلسفة «الصراع»، وأحل محلها فلسفة «التدافع» الذي هو حراك يعدّل المواقف، ويعيد التوازن، مع بقاء التعددية والتعايش والحوار والتفاعل بين مختلف الفرقاء.

إن الإسلام لا يريد «الصراع» الذي ينهي «الآخر»، وإنما «التدافع» الذي هو حراك يحل التوازن محل الخلل الذي يصيب علاقات الفرقاء المتمايزين.

كذلك يرفض الإسلام الفلسفات التي اعتبرت القتل والقتال وإزهاق الأرواح جبلّة جُبل عليها الإنسان وغريزة من غرائزه المتأصلة فيه. وفي مواجهة هذه الفلسفات التي ذهبت إلى حد اعتبار الحرب طريقاً من طرق التقدم والتطور(!) يقرر الإسلام أن القتال هو الاستثناء المكروه وليس القاعدة. إنه ضرورة تُقدر بقدرها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾(البقرة: ٢١٦)، وليس هناك «مكتوب» و«مفروض» وصف في القرآن الكريم بأنه «كُرْهٌ» سوى القتال.

ولقد بينت السنة النبوية وأكدت هذه الفلسفة الإسلامية إزاء القتال. فقال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا ذكر الله» (رواه الدارمي).

وحتى هذا القتال الذي كتب على المسلمين وهو كُره لهم والذي وقف به الإسلام ودولته عند حدود القتال الدفاعي لحماية حرية العقيدة وحرية الدعوة من الفتنة -التي هي أكبر من القتل المادي- ولحماية حرية الوطن الذي بدونه لا يُقام الإسلام... حتى هذا القتال - الاستثناء والضرورة- قد وضع الإسلام ودولته له «دستوراً أخلاقياً» تجاوز في سموه كل المواثيق الدولية التي تعارف عليها المجتمع الدولي نظريا (!) بعد أربعة عشر قرناً من ظهور الإسلام، وتطبيق المسلمين لقواعد الدستور الأخلاقي لهذا القتال.

ولقد صاغ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو رأس الدولة قواعد هذا الدستور الأخلاقي للقتال والحرب في وثيقة إسلامية عندما أوصى قائد جيشه يزيد بن أبي سفيان وهو يودعه أميراً على الجيش الذاهب لرد عدوان البيزنطيين في الشام، فقال في وثيقة الوصايا العشر: «إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبَّسوا أنفسهم لله (الرهبان) فدعهم وما زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم له (...) وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأةً ولا صبيّاً، ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخرّبن عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً، ولا تفرقنه، ولا تغْلُل، ولا تجْبُن»(رواه مالك في الموطأ).

فمعيار الإسلام ودولته في السلم والسلام أو الحرب والقتال ليس «الإيمان» و«الكفر» ولا «الاتفاق» و«الاختلاف»، وإنما هو التعايش السلمي بين الآخرين وبين المسلمين، أو عدوان الآخرين على المؤمنين بالفتنة في الدين أو الإخراج من الديار. وعن هذا المعيار للعلاقة بين الإسلام وبين الكافرين به والمنكرين له يقول القرآن الكريم: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(الممتحنة: ٧ - ٩).

ولقد طبق المسلمون هذا المعيار في العلاقات مع المخالفين، فكان اليهود -بدولة المدينة المنورة- جزءً من الرعية والأمة. ونص دستور هذه الدولة الإسلامية الأولى على أن «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتنَاصر عليهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين؛ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، فيهود أمة مع المؤمنين». وبالنسبة لعموم النصارى قررت المواثيق النبوية في هذه الدولة الإسلامية الأولى: «أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم».

تلك هي حقيقة النظرة الإسلامية إلى القتال. إنه الاستثناء لا القاعدة، وهو الاستثناء المكروه ولا يجوز اللجوء إليه إلا دفاعاً عن حرية الاعتقاد والضمير وحرية الوطن الذي بدون حريته يستحيل إقامة الاعتقاد الديني على النحو الذي أراده الله في شريعة الإسلام. تلك هي حقيقة القتال في الإسلام وتلك هي مقاصده.

إنه مجرد شعبة من شعب الجهاد، وهو الاستثناء لا القاعدة، والضرورة التي تُقَدَّر بقدرها، وهو الفريضة المكروهة وليس الجِبلة التي تقود إلى التقدم كما زعمت فلسفات وثقافات خارج نطاق الإسلام.

حقيقة الإرهاب

إن المفهوم الغربي لمصطلح «الإرهاب»، والذي يعني استخدام العنف غير المشروع لترويع الآمنين ولإكراههم على قبول ما لا يريدون، وخصوصاً عندما يكون هذا الإرهاب تمارسه السلطة الحاكمة ضد المحكومين، أي إرهاب الدولة الذي يبث الرعب في نفوس المحكومين... إن هذا المفهوم الغربي للإرهاب هو أبعد ما يكون عن مفهوم المصطلح في لغتنا العربية وفي القرآن الكريم الذي هو كتاب العربية الأول وديوان شريعة الإسلام. بل إن الإسلام يبرئ سائر الديانات السماوية من أن يكون الإرهاب والعنف والإكراه والترويع للآمنين سبيل أي منها في الدعوة إلى شريعة أي دين من تلك الديانات. فمنهاج الدعوة إلى اليهودية في شريعة موسى عليه السلام هو «القول اللين»، وليس العنف أو الحرب والقتال والإرهاب: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَو يَخْشَى﴾(طه: ٤٢-٤٧).

ولأن موسى عليه السلام لم يقم دولة ولم يقد جيشاً ولم يخض حرباً ولا قتالاً، وإنما ولد ونشأ وبعث في مصر، فلقد ظلت شريعته الحقيقية بريئة من أي إكراه أو عنف أو إرهاب.

وكذلك الحال مع النصرانية التي جاء بها عيسى بن مريم عليه السلام. فهي شريعة الصوفية المسالمة والسلام الصوفي التي بلغت في السلام والمسالمة حدوداً ومثلاً ربما عَزَّتْ على التطبيق في نطاق هذا العالم. ولذلك قال المسيح عليه السلام إن مملكته ليست في هذا العالم. فبراءة النصرانية -ومنهجها في الدعوة- من العنف والإكراه والإرهاب الذي يروّع الآمنين براءة لا تحتاج إلى كثير حديث.

وكذلك الحال مع منهاج الدعوة الإسلامية في الدعوة إلى الله، فلقد جاءت مؤكدة على المنهاج الإلهي في الدعوة إلى الإيمان الديني... منهاج الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، لأن هذا المنهاج هو الوحيد الذي يثمر إيماناً وتصديقاً قلبياً يبلغ مرتبة اليقين؛ بينما الإرهاب بمعنى ترويع الآمنين وإكراههم على ما لا يريدون هو سبيل النفاق الذي هو أشد سوء من الشرك الصراح والكفر البواح، وليس سبيل الإيمان بأي حال من الأحوال.

أمَّا أولئك الذين يستندون إلى ورود الإشارة في القرآن الكريم -بسورة الأنفال- إلى الإرهاب، فإن خطأهم القاتل -هذا إذا حسنت النوايا، وساء الفهم- هو في وقوفهم عند المصطلح مغفلين تميز مفهوم هذا المصطلح في القرآن الكريم واللغة العربية عن مضمونه الغربي الذي شاع ويشيع الآن في دوائر الفكر والثقافة والسياسة والإعلام. ولو أنهم فهموا سياق الآيات القرآنية التي ورد فيها هذا المصطلح -بسورة الأنفال- ثم جمعوا إلى آيات الأنفال كل الآيات التي ورد فيها هذا المصطلح ومشتقاته بالقرآن الكريم، ثم فسروا هذه الآيات، وفقهوا هذا المصطلح وفق مضمونه العربي وسياقه القرآني، لَمَا تطرق إلى ذهن أحد أن هناك أدنى علاقة بين الإسلام وبين الإرهاب، بمعنى ترويع الآمنين بالعنف والعدوان والإكراه.

إن آيات سورة الأنفال تتحدث عن المشركين الذين يقاتلون المسلمين، بفتنتهم في دينهم، وإخراجهم من ديارهم؛ وتخص بالحديث قوماً من هؤلاء المشركين المقاتلين احترفوا الخيانة للعهود، وأخذ المسلمين على غرة رغم ما بينهم من عهود للسلم والأمان. فتطلب هذه الآيات القرآنية من المسلمين أن يعدوا من العدة، ويتخذوا من القوة ما يرهب ويخيف -أي يردع- هؤلاء الذين مردوا على الخيانة ونقض العهود والغدر والعدوان ما يردعهم عن هذه الخيانة.

يخاطب الله رسوله في هذه الآيات فيقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال:٥٨-٦٣).

فمعنى الإرهاب هنا هو التخويف لردع الخونة والمخادعين والغادرين كي لا يغدروا بالمسلمين المعاهدين. وهو تخويف يوجب إعداد القوة الرادعة وليس تخويف العدوان والعنف والإكراه، أي أنه التخويف الذي ينفي العنف والإكراه والقتال. فهو كالعقوبة الرادعة؛ إعلانها يمنع ويردع عن الجريمة، ومن ثم يمنع تطبيقها. ولا علاقة لهذا الإرهاب بهذا المعنى بترويع الآمنين وإكراههم بالعنف والقتال والإكراه الذي هو معنى مصطلح الإرهاب في الفكر الغربي.

إن امتلاك الاتحاد السوفيتي إبان الحرب الباردة في منتصف القرن العشرين للسلاح -الرادع- النووي والهيدروجيني، هو الذي أرهب وردع أمريكا وأخافها من العدوان الذري على السوفيت، فتحقق الأمن والأمان للعالم من هذه الكارثة النووية.

ويشهد على هذه الحقيقة المفاهيمية مع السياق الذي وردت به آيات سورة الأنفال معنى مصطلح الإرهاب في العربية لغة القرآن الكريم.

ونحن عندما نعود إلى «الراغب الأصفهاني» في كتاب «المفردات في غريب القرآن» نجد أن معنى الإرهاب في القرآن ولغته العربية هو على الضد من العنف الذي يروّع الآمنين ويرعبهم. فهو من «الرهبة» بمعنى المخافة مع «تحرّز واضطراب». وليس هناك عاقل يمكن أن يفسر المخافة والرهبة والخشية بالعنف الذي يروّع الآمنين ويرعبهم. وتشهد على ذلك كل الآيات القرآنية التي وردت فيها إشارات إلى هذا المصطلح وتصريفاته اللغوية.

فالرهبان هم الذين يبالغون في الخوف من الله وفي خشيته. والرهبانية هي المبالغة في الخشية من الله. وليس في أي من مضامين هذه المصطلحات القرآنية -يرهبون، فارهبون، تُرهبون، استرهبوهم، الرهْب، الرهبة، الرهبان، الرهبانية- ما يشير من قريب أو بعيد للمعنى الغربي للإرهاب، بمعنى العنف الذي يروّع الأبرياء والآمنين ويرعبهم.

إن إخراج الناس من ديارهم وأوطانهم وتحويلهم إلى لاجئين، هو عنف وإرهاب وترويع للأبرياء والآمنين. وإن نظرة على تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق، لتضع أيدينا وأبصارنا على قرون الغزو والعنف والقهر الثقافي والسياسي والديني والحضاري الذي مارسه الغرب ضد الشرق أغلب قرون ذلك التاريخ.

تلك هي حقيقة الجهاد والقتال والإرهاب في مصطلح العربية والقرآن والإسلام.

* كاتب ومفكر إسلامي - مصر.

المصادر

١. مجمع اللغة العربية، (معجم ألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة سنة (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).

٢. د. محمد حميد الله الحيدر آبادي، محقق (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، والخلافة الراشدة)، ص ١٦- ٢١، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

٣. مجمع اللغة العربية، (معجم العلوم الاجتماعية) طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٥م.

في بلاد الثلج

محمد سداد *

الفصل شتاء... المكان بلد من بلدان روسيا الشهيرة بجبالها الشاهقة وبردها القارس وثلوجها التي لا تذوب حتى نهاية الربيع. مضى على مغادرته لتركيا بضعة أشهر. حين ودع الأهل والأصدقاء كان يوما من أيام الخريف حيث أخذت أوراق الأشجار الصفراء تتساقط منذرة بنهاية الأيام الجميلة. إنه الآن في بلاد بعيدة تقع في أقاصي الأرض، ولا يعرف عنها شيئا سوى ما قرأ في كتب القصص والأساطير.

شاب في السادسة والعشرين من عمره. تخرج في إحدى الجامعات الراقية بإسطنبول. يتقن اللغة الإنكليزية كلغته الأم. نعم، إنه الآن بعيد عن الوطن، في أرض لا يعرف لغتها ولا ثقافتها. دفعه إلى هنا صوت انطلق من أعماقه «امض يا أخي، فهناك ظمآى يترقبون النور الذي تحمله إليهم». أتى إلى هذه البقعة النائية من روسيا مدرسا للإنكليزية في ثانوية فتحها متطوعون من تركيا قبل عدة سنوات لنشر رسالة الحب والسلام. البرد قارس والجبال يكللها الضباب والثلوج تغطي كل مكان... المفروض ألا يتأثر بالبرد لأنه قد اعتاد على مثله في مدينة «أرضروم» الشرقية الشهيرة ببردها وتساقط ثلوجها. غير أن الوضع هنا يختلف تماما. فهو يقسم أن جسده لم يشهد طوال حياته مثل هذا البرد. الفترة القصيرة التي انقضت ما بين نزوله من الطائرة وركوبه السيارة بدت له كأنها عام كامل. الموت تجمدا أمر سهل للغاية هنا.

وصل المدرسة... كوكبة من الشباب في انتظاره رغم البرد القارس. كلهم أتوا من تركيا. أحدهم معلم إنكليزية والآخر معلم كيمياء، والثالث معلم فيزياء... كلهم خريجو أرقى جامعات تركيا. غير أنهم اختاروا هذه البلاد الباردة على وطنهم الدافئ والعروض المغرية. حملتهم نفس الغاية السامية. أثناء تجواله في الممرات والفصول تحدث مدير المدرسة عن ضيق الإمكانيات والمواقد المعطلة ومشكلة الكهرباء التي لا يعلم إلا الله متى تعمل وأمورا أخرى كثيرة. تساءل الشاب بينه وبين نفسه «أيمكن العيش هنا؟»

تعلقت نظراته على زملائه وهم يطوفون حوله بحماس... هذا يصلح جانبا من البناء المتداعي وذاك يدهن الجدران وآخر يحمل خزانة... لمح النور الذي يتلألأ في عيونهم. امتلأ قلبه بالغبطة لهؤلاء الشباب الذين نذروا أنفسهم لرسالة الحب والتسامح والإخاء. من أين يجدون هذه الطاقة من الصبر؟ أنى لهم هذه القوة من الشوق والعزم الذي لا ينفد؟ كان يعمل كل واحد منهم كأنه جذوة متقدة... الأمل يتألق في محيا الجميع... بسمة الفرح تعلو جميع الوجوه؟ ما سر هذا يا ترى؟

عندما بدأت العتمة تسري في الجو علم أن الشمس مالت إلى المغيب. أين هو السعيد الذي يحظى برؤية الشمس؟ الغيوم الرمادية تغطي الآفاق هنا أكثر من ستة أشهر. ذهبوا به إلى منزل أحد تلاميذ المدرسة. خلافا للبرودة المجمدة احتضنته حرارة حنون في الداخل. بعد قليل لاح التلميذ يحمل صينية أكواب من الشاي الساخن. توقع أن يكون في الخامسة عشر من العمر، قامته تميل إلى الطول، شعر أصفر يميل إلى الحمرة، عينان زرقاوان في وجه مستدير أبيض تعلوه ابتسامة الترحاب. أثناء تقديمه الشاي قال التلميذ للضيف الجديد بلغة تركية جيدة «أنا أجيد اللغة التركية». حاول الضيف أن يغطي حيرته بابتسامة متكلفة «قل شيئا بالتركية إذن؟»

حدق الفتى في عينيه وقال بصوت رخيم وبسمة واسعة وكأنه اكتشف تساؤلاته التي تصطرع داخله منذ النهار «أما ترضى... أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة...»

أصيب بصدمة... فوجئ... لم يكن يتوقع هذا الرد... أحس بالخجل يجري في عروقه بسبب الأفكار التي راودته أثناء تجواله في المدرسة. يا إلهي! ها هو السر؟ إنه اكتشف سر الصبر والعزم والشوق الذي شد قلوب زملائه إلى هذه البقاع النائية... ها هو السر يقف أمامه بوجهه الطلق المتبسم. فأحس بصوت ينطلق من أعماقه «بل هنا الحياة الحقيقية التي تستحق العيش». أحس بارتياح عميق في قلبه. زالت جميع الآلام والأحزان. شعر أنه وجد وطنه الحقيقي.

* كاتب تركي. وهي قصة حقيقية وقعت في إحدى مناطق روسيا.

جمالية المضمون العلمي في رسائل النور

أ.د. محمد الروكي *

إن المتأمل في رسائل النور، المتمعن في مضامينها ومقاصدها، يجد أنها حقا رسائل نور، فهي تفيض بمعاني النور، وتتدفق فيها أفكار النور، وتشقق منها سيول الهدى، وتنساب منها فيوض الندى. إنك إذا قرأتها في نسقها العام، ونظرت إليها وهي في منظومتها الشاملة المتكاملة، أدركت أنها قد نبعت من قلب متفجر بالإيمان، متشبع بالقرآن، وعلمت أنها قد سالت من فكر شمولي عميق، قوامه السعة والتنوع وقوة التحليل والتعليل. إنك إذا قرأت رسائل النور وأمعنت النظر في فقراتها وفتحت البصيرة في محتوياتها رأيت رأي العين من خلالها سعيد النورسي القديم والجديد وما بعد ذلك، وأيقنت أنه بجانبك يحاورك ويناجيك، ويلقي عليك بخالص ذهبه، ولباب أدبه، ويحبك لك ببالغ نصائحه، ويسبك لك أجود مواعظه، ويصوغ لك لآلئ فكره، وحلال سحره، ولم يسعك أمام ذلك كله إلا أن تنحني إجلالا، وتطأطئ رأسك امتثالا، وتقف إكبارا لهذا الرجل الرباني الذي يحق لنا أن نصفه بأنه المجدد المصلح المربي القدوة الإمام الذي وهب قلبه وعقله لعصره، ووقف حياته لدينه، وبذل رحيق عمره للدعوة والتربية وبناء الأجيال المسلمة المؤمنة، وتقديم مادة الإسلام لهم ينبوعا صافيا، ودواء شافيا من أسقام الأوهام الفكرية، وعلل الاختلالات التي ابتلتهم بها الحياة المعاصرة وما حملته من شظايا المدنية الغربية، وما رشحت به من رذاذ حمأتها الآسنة.

إن رسائل النور في الحقيقة لا يدرك قيمتها ولا يذوق حلاوتها ولا يقدرها حق قدرها إلا الذين عايشوها وتلقوها مباشرة من معينها الصافي، ومنبعها الرقراق، وكانوا رجالها وناسها، فيهم حُررت، وفي وقائعهم كُتبت، وبأيديهم نُسخت ووُزعت، وفي بيوتهم ومجالسهم قُرئت. فهم أسباب ورودها، وعناصر مادتها ومقومات محتوياتها. ومن ثم فإن قارءَها يجب أن يستحضر ذلك كله حتى تفهم حق الفهم. يجب أن يقرأها القارئ وقد أخذ حظه من معرفة ملابساتها الزمانية والمكانية والإنسانية. يجب أن يقرأها القارئ وقد أخذ زاده من معرفة أصولها ومصادرها ومدرستها ومنهاجها، وتعرف على محررها ورائدها وقائدها وموقد نورها الشيخ العالم الرباني بديع الزمان سعيد النورسي الذي نحتها من ذاته، وفجر ينابيعها في قلبه الوضاء، وأوقد مصباحها من فكره الثاقب وبصيرته الساطعة. لا بد لقارئ رسائل النور أن يستعين في فهمها وفقه مضامينها بالتعرف على حياة هذا الرجل الإمام وفكره وجهاده وفلسفته في الدعوة والتربية والبناء والتغيير، ومنهجه في خطاب العقل والقلب، وطريقته في مناظرة الأقربين ومحاورة الأبعدين.

إن رسائل النور مدرسة قائمة بذاتها، لها أسسها المحكمة، ومعالمها الواضحة، ومنهاجها التربوي البين. إنها مدرسة مبنية على ركنين مضمنين في رسمها نفسه المركب تركيبا إضافيا «رسائل النور».

فالركن الأول النور. ومعنى ذلك أن تراث النورسي ورصيده الفكري، وأعماله العلمية التي بين أيدينا، كل ذلك قائم على أساس صياغة أفكار الهدى ومضامين النور المستمدة من أصول الإسلام والقرآن والسنة. نعم إن تراث النورسي هو اقتباس من نور القرآن وإشراقة السنة، فهو نور على نور﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّٰهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾(النور:٤٠). وهذا التفسير لا يتنافى مع ما ذكره النورسي في تعليل تسمية أعماله بـ«رسائل النور» من قوله في كتاب الملاحق: «إن سبب إطلاق اسم رسائل النور على مجموع الكلمات وهي ثلاث وثلاثون كلمة، والمكتوبات وهي ثلاثة وثلاثون مكتوبا، واللمعات وهي إحدى وثلاثون لمعة، والشعاعات وهي ثلاثة عشر شعاعا، هو أن كلمة النور جابهتني في كل مكان طوال حياتي، منها:

– قريتي اسمها نورس

– اسم والدتي المرحومة: نورية

– اسم أستاذي في الطريقة النقشبندية: سيد نور محمد

– وأحد أساتذتي في الطريقة القادرية: نورالدين

– وأحد أساتذتي في القرآن: نوري

– وأكثر ما يوضح كتبي وينورها هو التمثيلات النورية.

– وأكثر ما حل مشكلاتي في الحقائق الإلهية هو اسم «النور» من الأسماء الحسنى.

– ولشدة شوقي نحو القرآن، وانحصار خدمتي فيه، فإن إمامي الخاص هو سيدنا عثمان ذو النورين رضي الله عنه».[١]

وأقول: هذا لا يتنافى مع التفسير العام الذي ذكرت، والتعليل الكلي الذي بينت، بل إنه يبينه ويؤكده ويقرره، لأنه كان يستحضر كلمة النور ودلالاتها ومقاصدها وأسرارها التي جابهته فيها كلمة النور. فالذي يعنينا نحن الآن هو النظر إلى رسائل النور بعد صياغتها وتحريرها، وتقويمها في ضوء مضمونها ومنهجها وآثارها التربوية الإيمانية. فهي من هذه الجهة العامة تحمل قيم النور وفكرته وسره وإشعاعه. وحتى أسماء بعض مجموعات الرسائل جاءت مطبوعة بذلك دالة عليه، مثل اللمعات، الشعاعات، صيقل الإسلام... الخ.

والركن الثاني الرسائل. ومعنى ذلك أن هذه الأعمال العلمية تحمل رسالة لأبناء الإسلام ورجاله ونسائه وشبابه. فهي أعمال ومحررات ليس المقصود منها هو مجرد المعلومات والمتعة الفكرية، بل إنها أعمال رسالية توجيهية تربوية وظيفية. القصد منها إيصال المضامين الإسلامية حية إلى العقل، وإرسال المعاني الإيمانية الناصعة إلى القلب، وتوجيه المقاصد والأسرار القرآنية إلى النفس والوجدان والشعور.

وإذن فتراث الأستاذ النورسي بناء شامخ سامق، قائم على ترجمة نور الإسلام وهدى القرآن إلى رسائل ومكتوبات ومحررات وظيفية رسالية، يمكن أن تُتخذ نبراسا في الحياة، ودليلا مرشدا على السير في دربها. وهاهنا يكمن جمال هذه الرسائل، وتظهر روعتها. إن جمالها في نوريتها ورساليتها. إن جمالها في مضمونها ومقاصدها ودلالاتها التربوية الإيمانية.

فما هي أصول هذه الجمالية؟ إن الجواب عن ذلك هو كالآتي:

أصول جمالية رسائل النور

إن جمالية رسائل النور نابعة من جودة مضمونها العلمي. وجودة مضمونها العلمي قائمة على أصول كثيرة كان الأستاذ النورسي راسخا فيها، مشبعا بمادتها، متفيئا في ظلالها، ويمكن إجمالها في الأمور الآتية:

١. القرآن والسنة

إن الطابع العام الذي يطبع رسائل النور أنها رسائل مستمدة قوتها من القرآن، ومقتبسة أنوارها من القرآن، وآخذة ماءها ورونقها وحياتها من القرآن. فهي رسائل قرآنية استخلص الأستاذ النورسي مادتها ومقوماتها من القرآن الكريم الذي تشبع بقيمه وحكمه ومضامينه، ورأى بنوره، وسار على هداه، وملأ به قلبه، وسرى تياره في وجدانه، فصار بذلك رجلا قرآنيا يفكر بالقرآن، ويكتب بالقرآن، ويعلم بالقرآن. لقد جاء في كتاب الملاحق هذا التصوير لرسائل النور:

«إن رسائل النور برهان باهر للقرآن الكريم، وتفسير قيم له، وهي لمعة براقة من لمعات إعجازه المعنوي، ورشحة من رشحات ذلك البحر، وشعاع من تلك الشمس، وحقيقة ملهمة من كنز علم الحقيقة، وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته.

إن رسائل النور ليست كالمؤلفات الأخرى التي تستقي معلوماتها من مصادر متعددة من العلوم والفنون. فلا مصدر لها سوى القرآن، ولا أستاذ لها إلا القرآن، ولا ترجع إلا إلى القرآن، ولم يكن عند المؤلف أي كتاب آخر حين تأليفها. فهي ملهمة مباشرة من فيض القرآن الكريم، وتنزل من سماء القرآن ومن نجوم آياته الكريمة».[٢]

وجاء في نفس الكتاب أيضا:

«إن رسائل النور كذلك ليست نورا مقتبسا وبضاعة مأخوذة من معلومات الشرق وعلومه، ولا من فلسفة الغرب وفنونه، بل هي مقتبسة من العرش الرفيع السماوي لمرتبة القرآن الكريم الذي يسمو على الشرق والغرب. فرسائل النور التي هي ضياء معنوي، وعلم في منتهى العلو والعمق معا، لا تحتاج دراستها والتهيؤ لها إلى تكلف، ولا داعي لأساتذة آخرين لتعلمها، ولا الاقتباس من أفواه

المدرّسين، حيث إن كل شخص يفهم حسب درجته تلك العلوم العالية دونما حاجة إلى إشعال نار المشقة والتعب للحصول عليها، فيفيد نفسه بنفسه، وربما يكون عالما محققا» .[3]

وهذه الخاصية في رسائل النور المشار إليها في الفقرة الأخيرة من هذا الكلام، هي أيضا مقتبسة من القرآن الكريم. فالقرآن لا يحتاج الآخذ منه إلى تكلف ولا إلى أستاذ أو مدرس، بل يكفيه الإقبال الصادق عليه، والتدبر الجاد في آياته، والنظر الواعي في بصائره. فكل من أخذ بهذه الأسباب نال حظه من كنوز القرآن، يصدق ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠).

والفكر القرآني عند النورسي معزز بالسنة، ومدعم بتفسيرها وبيانها. يقول في توضيحه لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ (آل عمران:٣١) تعلن هذه الآية العظيمة إعلانا قاطعا عن مدى أهمية اتباع السنة النبوية ومدى ضرورتها:

«نعم إن هذه الآية الكريمة أقوى قياس وأثبته من قسم القياس الاستثنائي ضمن المقاييس المنطقية، إذ يرد فيه على وجه المثال: «إذا طلعت الشمس فسيكون النهار»، ويرد مثالا للنتيجة الإيجابية: «طلعت الشمس فالنهار إذن موجود»، ويرد مثلا للنتيجة السلبية: «لا نهار فالشمس إذن لم تطلع». فهاتان النتيجتان –الإيجابية والسلبية– ثابتتان وقاطعتان في المنطق، وكذلك الأمر في الآية الكريمة، فنقول: إن كان لديكم محبة الله فلا بد من الاتباع لحبيب الله، وإن لم يكن هناك اتباع فليس لديكم إذن محبة الله، إذ لو كانت هناك محبة حقا فإنها تولد حتما اتباع السنة الشريفة لحبيب الله» .[4]

٢. العلوم الشرعية وغيرها

الناظر في رسائل النور لا يسعه إلا أن يدرك غزارة مضمونها العلمي. وقارئها الفاحص المتمعن يجدها حافلة بالمادة العلمية، قوية الإفادة، عظيمة النفع. ومرد ذلك إلى ضلاعة صاحبها النورسي بالعلوم الشرعية واللغوية والعقلية، وتبحره في مباحثها وقواعدها. فالقرآن الكريم هو أستاذه الأول، ومدرسته الأولى؛ والسنة النبوية هي منهاجه الذي سار عليه في حياته ورسائله. وقد أودع في رسائله مكنون فهومه لآيات القرآن وكنوزه ومعارفه التي استمدها منه مستعينا بما لديه من حصيلة واسعة في علوم القرآن التي هي مفاتيح معانيه وأحكامه وقيمه. كما أودع فيها جواهر فهمه المشرق للأحاديث النبوية مستعينا بما يملكه من قواعد فقه الحديث وعلومه التي هي مفاتيح لمضامينه ودلالاته الشرعية والتربوية.

وإلى جانب علوم القرآن والسنة فقد أودع النورسي في رسائله مئات المسائل والفوائد في علم التوحيد والفقه وأصوله والمنطق والبلاغة والفلسفة والتاريخ والأدب واللغة... وغيرها من العلوم والفنون، وألوان الثقافة الشرعية والفكر الإسلامي. ومن ثم كانت هذه الموسوعة العلمية أصلا آخر لجمالية المضمون العلمي عند النورسي ينضاف إلى القرآن والسنة من حيث مادتها. فكما أن رسائل النور قوامها القرآن، ومنهاجها السنة، فكذلك جاءت ترشح بمختلف العلوم والفنون وأصناف الثقافة التي استقاها من مادة الإسلام وفكرته، وصاغها صياغة حية محركة موجهة.

٣. القيم الإسلامية

إن استفادة النورسي من العلوم الشرعية والعقلية واللغوية وتوظيفه إياها في رسائله، لم تكن من قبيل العلم للعلم، ولا من باب الفن للفن، بل كان ذلك من باب خدمة الدين وإذكاء روح الإيمان، وأداء رسالة الإسلام. لقد كتب النورسي رسائله وحررها مفعمة بأخلاق الإسلام، مشبعة بقيمه ومكارمه، حافلة بفضائله. لقد جاءت رسائل النور تحمل لواء أخلاق الإسلام، وتصوغ قيمه في فقراتها الناصعة، وتترجم لقرائها مبادئه ومثله العليا في لغة حية وأسلوب محرك مؤثر. فكان هذا أصلا من أصول جمالها الفكري وروعتها المضمونية، يتكامل مع سابقه، ويسير معه جنبا إلى جنب. والعلم والأخلاق ما اجتمعا في شيء إلا زاناه وجملاه، بل إن العلم في ميزان القرآن لا ينفك عن ثمرته التي هي الأخلاق والفضائل. فالعلم الحق بميزان القرآن هو الذي يقود إلى قيم الخير، ويجر إلى فضائل الأعمال ومحاسن السلوك، يصدق ذلك قول الله تعالى في معرض المقارنة بين الصالح المستقيم وعكسه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:٩).

٤. الربانية

إذا كانت الأخلاق هي ثمرة العلم النافع، وأن كلا منهما أصل من أصول جمالية المضمون العلمي لرسائل النور. فإن الأخلاق ثمرتها الربانية؛ فتمثل أخلاق الإسلام وقيمه، والتزام فضائله، والتربية على مكارمه ينتج في الشخص الربانية ويورثه إياها. ولقد كان النورسي ربانيا، وأستاذا في الربانية، ومعلما للربانية، وداعيا إلى الربانية، وجاءت رسائله مطبوعة بطابع الربانية. وقد تعلم هذه الربانية من القرآن الكريم، واكتسبها منه، متمثلا في ذلك قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِن دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: ٧٩). وبهذا كانت ربانية النورسي التي ترشح بها رسائله أصلا من أصول جمالها الفكري وبهائها العلمي. ومن القرآن استمدها واقتبس أنوارها.

٥. الإيمان برسالة الإسلام

لقد كتب النورسي رسائله وأخرجها لطلاب النور انطلاقا من إيمانه برسالة الإسلام ويقينه بأنها الحق، وأن سبيلها هو سبيل الرشاد، وثقته بأن الجولة لها والعاقبة لأصحابها، قال يقرر ذلك:

«أعلن بلا تردد أن الذي دفعني وشجعني إلى مبارزة أفكار العصور الخوالي والتصدي للخيالات والأوهام التي تقوت واحتشدت منذ مئات السنين، إنما هو اعتقادي ويقيني بأن الحق سينمو نمو البذرة النابتة وإن تسترت تحت التراب، وأن أهله سينتصرون وإن كانوا قلة وضعفاء بظلم الأحوال. واعتقادي أن حقيقة الإسلام هي التي تسود قارات العالم وتستولي عليها. نعم إن الإسلام هو الذي سيعتلي عرش الحقائق والمعارف فلا يكشفها ولا يفتحها إلا الإسلام... الأمارات تبدو هكذا».(٥)

وبمثل هذه الثقة وهذا الإيمان جاءت رسائل النور صادقة اللهجة، جميلة المضمون، رفيعة المحتوى، نافعة هادية.

٦. الثقة بالنفس

هذا الأصل متعلق بسابقه تعلق الثمرة بأمها، والنتيجة بمقدمتها، وذلك أن إيمان النورسي برسالة دينه، ولد فيه ثقته بنفسه، فكانت كل فقرة كتبها في رسائله، وكل جملة وكل كلمة تنبض بالصدق والقوة، وتنضح بالحرارة والجدية والتأثير في المخاطب. لقد اكتسب ثقته بنفسه من إيمانه برسالته. والثقة بالنفس مأتاها الثقة بالله عز وجل. ولقد كان النورسي واثقا بربه جل وعلا، واثقا بوعده الذي وعد به عباده من النصر في الدنيا والجنة في الآخرة، وحاش لله تعالى أن يخلف وعده، لقد طبع بهذه الثقة كل كلمة من كلمات رسائله، فجاءت أجمل وأروع في مضمونها العلمي ومحتواها التربوي.

٧. الصدق ونبع الكلام من القلب

من أصول جمال المضمون العلمي لرسائل النور صدق لهجتها، وانفلاق معانيها وخطابها من أعماق قلب صاحبها ومحررها. لقد كان صادقا في كل ما يكتبه، مؤمنا بكل ما يقوله ويحرره، وكان لسانه دليل قلبه، وقلمه رسول فكره، وظاهره مترجم باطنه، وصدق الكلام عنوان جماله.

٨. غزارة الأفكار

لقد استفاد النورسي من كثرة العلوم التي درسها، وكثرة الكتب التي قرأها، فتكون لديه من ذلك فكر واسع ومعلومات غزيرة استطاع أن يجلو بها الحقائق ويعرض المفاهيم الإسلامية ويحرر المقولات العلمية. كما استطاع بها أن يجيب عن كل ما يعرض عليه من الأسئلة، ويحل ما يلقى إليه من المسائل والمشاكل. لقد كتب في علوم الدين، وفي الآداب، والاقتصاد والسياسة والتاريخ، وفي الفلسفة والمنطق وعلم الكلام... وغيرها من العلوم والفنون. وكل ذلك يكتبه بإتقان، ويحرره بإحسان... فكانت هذه الغزارة في أفكاره أصلا من أصول جمال المضمون العلمي في رسائله.

٩. سعة الخبرة والحنكة وطول المباشرة

لقد جمع النورسي إلى جانب سعة علمه، وغزارة أفكاره، ولطيف شمائله مصدرا آخر اكتسبه من الحياة، هو خبرته الواسعة، وحنكته البعيدة، وطول مباشرته وتدبيره لشؤون طلابه وملازميه. فجاء ذلك واضحا في رسائله، بينا في فقراتها، مطبوعا في كلماتها، فزادها جمالا على جمال، ونورا على نور، حيث يستفيد منها قارئها العلم والعمل والخبرة والتجربة الحية التي تشخص العلم وتنزله على أرض الواقع، وتيسر الانتفاع به في الحياة.

١٠. سلامة المنهج وجودته

إلى جانب ما تقدم من أمور المضمون العلمي لرسائل النور، فقد صيغ هذا المضمون وأفرغ في قالب جديد، ومنهج سديد، لم يتبع فيه النورسي طرق التأليف المعروفة، ولا مناحي الكتابة المألوفة، بل اعتمد طريقة فريدة وأسلوبا شيقا متميزا. فهو يعتمد التنويع في عرض الأفكار، والعمق في تحليلها، والسعة في ضرب الأمثال، والشمولية في بسط المضامين العلمية، والوظيفية في إيراد النصوص وسوقها، والتدرج بالقارئ من العام إلى الخاص ومن الخاص إلى العام، ومن الكل إلى الجزء ومن الجزء إلى الكل، ومن الأعلى إلى الأدنى ومن الأدنى إلى الأعلى. وهكذا صيغ مضمون الرسائل في منهج محكم لا يصدر إلا عن خبير متبصر متمرس. فكان هذا أصلا آخر من أصول جمال الفكر النورسي في رسائله.

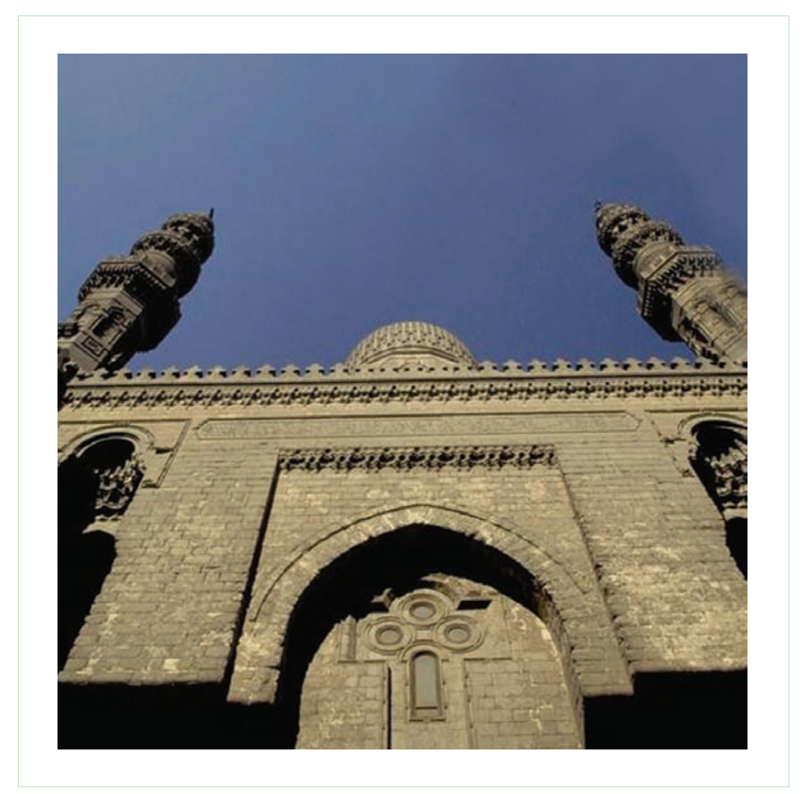
تلك -إذن- عشرة كاملة من الأصول التي قام عليها جمال مضمون رسائل النور، وأمثلة ذلك وتطبيقاته ترشح به الرسائل، وتنطق صفحاتها وفقراتها وجملها، فارجع إلى حيث شئت من هذه الرسائل تجد ذلك أوضح وأجلى في سطورها، وأما ما وراء السطور فإنه أكثر وأقوى.

* جامعة محمد الخامس - الرباط / المغرب.

الهوامش:

١. الملاحق، ملحق بارلا ص٧٠-٧١.
٢. الملاحق، ملحق قسطموني ص٢٢٠-٢٢١.
٣. الملاحق، ملحق قسطموني ص٢٢٢-٢٢٣.
٤. السنة النبوية، مرقاة ومنهاج ص١٣-١٤.
٥. صيقل الإسلام، محاكمات عقلية ص٢٢-٢٣.

الأمة الإسلامية... مفهوماً وخصائص



د.سمير بودينار *

إذا قدر لنا أن نسأل مجموعة من الأفراد في مجتمعنا عن «الأمة الإسلامية اليوم» فإن المتوقع أن تكون الإجابات أسئلة حائرة تقابل السؤال بالسؤال، من نوع: «وأين هي الأمة الإسلامية؟! هل بقي لها وجود؟!» أو تكون تقريرا يائسا: «إن الأمة الإسلامية ممزقة متفرقة. . . الأمة الإسلامية تعاني من حالة ضعف وهوان. . . الأمة الإسلامية واقعة تحت سيطرة أعدائها. . . الأمة الإسلامية لم يعد لها وجود، لأن المسلمين ما عادوا متشبثين بدينهم، موحَّدين في ظل مبادئه. . . » وهي عبارات لا يمر يوم إلا ونقرأها فيما يكتب ونسمعها في وسائل الإعلام وعلى ألسنة الناس في ملتقياتهم، يعبرون بها عن قلة أملهم في واقع الأمة الإسلامية اليوم، يؤكدون سوء حالها وخطورة مبلغ استشراء الداء في أوصالها. وقد لا نختلف كثيرا عن بعض هذه الآراء التي تبلغ مبلغ الإجماع في مستوى معين من مستويات قراءة الواقع، إلا أن ملاحظة ثانية لا تقل أهمية، تكاد تغيب بصورة مطلقة عن النقاش وعن التفكير وبالتالي عن الوعي العام، وهي أن أزمتنا في إدراك معنى الأمة الإسلامية ومعاني الولاء لها والانتماء إليها وواجبنا تجاهها، لا تقل عن الأزمة التي تعيشها هذه الأمة اليوم، بل يمكن القول إن هناك علاقة سببية لا يخطئها النظر تصل بين الأمرين.

فما هي الأمة الإسلامية ابتداء؟ مم تتشكل؟ ما هي مادتها؟ أليس كل مسلم على ظهر الأرض هو اللبنة الأصغر في بنائها؟ ألا يفترض هذا استحضار العلاقة المباشرة –عند الحديث عن الأمة الإسلامية ومشاكلها– بين الفرد والجماعة، بين حال المسلم وواقع أمته، بين الجزء والكل؛ كما يفترض حرصا على معرفة هذه الأمة من حيث أسس بنائها وخصائصها المتفردة، والتي قد تكون –بشكل ما– أحد العوامل التي جلب لها هذه التحديات الهائلة التي تصارعها، يماثل الحرص على إبداء الحسرة على حالها.

إن مثل هذه المنطلقات هي في تصورنا المداخل التي على إجاباتها

تترتب الحلول المقترحة، بل الأسئلة البديلة، المدعو كل واحد للمساهمة في طرحها، ونعتبر أن هذه الأسئلة ينبغي لها أن تظل الحافز للمعرفة والبحث في خيارات المستقبل المطروحة على أمتنا أي علينا أولا، من موقع الانتماء المبدئي والفعلي والدائم للأمة الإسلامية.



١. أسس بناء الأمة في الإسلام

يقوم مفهوم الأمة الإسلامية على أسس ثلاث لا يتيسر إدراكها إلا بالوقوف عندها، ليس بوصفها القواعد التي يقوم عليها بناء الأمة في مجالي التفكير والتجربة التاريخية فحسب، بل لأن هذه الأسس جزء لا يتجزأ من ماهية الأمة نفسها وعناصر بنائها ماضيا وحاضرا، واستمرارها مستقبلا، وهي:

ا) الأساس الثقافي

وهو الذي يمثل قاعدة بناء الأمة الإسلامية، فانطلاقا منه تتحدد ماهيتها ومرجعيتها وضوابط وحدتها، وهو الذي يبين رسالة الأمة الإسلامية، اعتمادا على مصادر الثقافة الإسلامية الأصيلة التي تحدد العقيدة والشريعة ومنظومة القيم والأخلاق والسلوك. وبالرجوع إلى هذه المصادر ندرك أن الأمة الإسلامية مفهوم أسسه القرآن الكريم ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ (المومنون:٥٢)، وانتقل في السنة النبوية إلى مستوى الواقع الذي يمثل «النموذج التأسيسي». فقد أسس رسـول الله ﷺ نواة الأمة الإسلامية في مكة من مجموعة الصحابة الذين صدقوا واتبعوا قبل أن يأتي النموذج العملي من خلال «التوثيق الدستوري» في «العهد النبوي أو صحيفة المدينة» والتي جاء فيها: «هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس»، ثم من خلال الأفعال والأقوال النبوية التي أعطت للجماعة المسلمة في المدينة بعد الهجرة سمات الأمة الواحدة المترابطة بروابط العقيدة والتصور ووحدة القيم والرسالة والمشروع الحضاري، والمنفتحة في امتداد لا يحده جنس ولا لون ولا لغة ولا رقعة جغرافية، إلا ما كان من إيمان بمبادئ هذه الأمة والتزام بمرجعيتها المؤسسة على الشريعة، بما يحقق وحدة الإدراك لكل ما يتصل بهذه المرجعية، كأساس لاحترام ما ينبثق عنها من مبادئ وأحكام تمثل نظاما متكاملا للسلوك الفردي والجماعي على السواء. وعلى هذا القدر من الجلاء كانت الإشارة النبوية في «الصحيفة» «... وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ» تأسيسا لوحدة المرجعية والتي تمثل أهم عناصر وحدة الأمة الإسلامية التي «تؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، وبالقرآن كتابا...».

والواقع أنه لهذا الرابط العقدي الثقافي دوره التأسيسي في هذه الوحدة كما سبق، إلا أن هذا الأساس نفسه لو بقي عقيدة مشتركة في قلوب عدد من الناس أو فكرة في عقولهم تمنحهم أجوبة وجودية على أسئلة الكون والحياة والإنسان، دون أن تمتد إلى الجانب العملي من حياتهم وفق آليات ثابتة ودائمة، أسستها الشريعة لتبقى عناصر الوحدة وقوة الروابط والصلات بين الأفراد داخل الأمة، لربما كان قد وقع بين المسلمين في إطار العقيدة الواحدة من التباعد والجفاء ما لا يمكن تصوره إلا باستحضار سير أمم ومجتمعات أخرى وردت إليها النبوات وتتابع إليها المرسلون حاملين رسالة التوحيد، ثم إذا هي بعد مدة طالت أو قصرت تفقد المبررات المادية العملية للوحدة، وتدب إليها الفرقة وتختلف بل تتقاتل حتى حول الفهوم المتباينة للعقيدة المشتركة. والحال أن الأمة الإسلامية تجد في مصدرها الأصيل ما يمكن أن نسميه «إعادة إنتاج مستمرة» لعناصر التوحد في مستوياتها المختلفة، بدءا من النواة الاجتماعية (الأسرة)، وصولا إلى مستوى الأمة الإسلامية الكبرى، مرورا بمستويات الاجتماع الإنساني كافة. ولعل هذه الآلية الموحدة باستمرار تبدو أجلى ما يكون في الأساسين الاجتماعي والاقتصادي لبناء الأمة.

ب) الأساس الاجتماعي للأمة الإسلامية

إذا كانت العلاقات الإنسانية هي التي تؤسس المجتمع، فإنه لا يتكون على الحقيقة بالأعداد الكبيرة من الأفراد مهما بلغوا، إلا في ظل شبكة العلاقات المعقدة بينهم، والتي تمثل شرط بناء المجتمع وحقيقته في آن. وبناء على هذا الأساس مثلت جملة الأحكام الشرعية المتصلة بالجانب الاجتماعي والمؤسسة لاستمرار ودوام الصلات بين الفرد المسلم وبين غيره من أفراد المجتمع الإسلامي الذي يوحده الإيمان المشترك بالمقومات الأساسية للإسلام (وحدة المرجعية) سواء اتخذ هذا الإيمان بعدا عقديا ثقافيا بالنسبة للمسلم أو بعدا حضاريا بالنسبة لغير

المسلم داخل المجتمع الإسلامي. وعلى هذا كانت حقوق المسلم على المسلم من الاتساع، بحيث تمتد إلى كافة صور الحياة الاجتماعية، ومن ثم فإن فرص بقاء الصلة بين أفراد المجتمع الإسلامي أكبر من أي فرص أخرى في ظل قيم مخالفة. ذلك أن طبيعة الالتزام الديني في الإسلام نفسه تفرض دوام اللقاء مما يسمح بتوطيد الصلات: «الصلوات الخمس في المسجد، السلام آخر كل صلاة، على مستوى الجوار؛ الاجتماع الأسبوعي في صلاة الجمعة على مستوى الحي؛ الاجتماعان السنويان في صلاة العيدين بالمصلى على مستوى المدينة أو القرية؛ اجتماع الحج العالمي الذي يجب على القادر حضوره ولو مرة واحدة في حياته على مستوى الأمة الإسلامية».

وكلما ضاقت الدائرة الاجتماعية إلا وكان الحرص على توطيد العلاقة أكبر. فالبناء الاجتماعي في الإسلام مؤسس على قواعد الرحم والقرابة والجوار. وهي العلاقات القاعدية في أي بناء اجتماعي مترابط وسليم، «الجيران ثلاثة، جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الذي له ثلاثة حقوق، الجار المسلم ذو الرحم، فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم. وأما الذي له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام. وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك» الحديث. (رواه البزار وأبو نعيم)

هذا إلى جانب ما هو ملقى على المجتمع من مسؤوليات الإصلاح بين المتخاصمين في شتى المستويات، كما هو الحال مثلا في «الإدارة الاجتماعية» للخلاف الزوجي عبر الحكمين ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ (النساء: ٣٥). وتأسيسا على ما سبق من اتساع مفهوم الانتماء للأمة الإسلامية ليشمل معنى «الانتماء الحضاري» الذي تؤسسه الحياة والقيم الاجتماعية المشتركة، ووحدة التجربة التاريخية للأفراد داخل مجتمع واحد حتى وإن كان من بينهم أقلية لا تدين بدينهم، فإن انتماءها للأمة يكون بصلة الثقافة والحضارة الإسلامية التي مثلت إطارا للحياة المشتركة بينها وبين الأغلبية المسلمة، ولئلا تستدرجنا الأمثلة التاريخية المتراكمة لسيل من المواقف التي جسدت الأساس الاجتماعي المتين لحياة هؤلاء جميعا، ضمن إطار الأمة الجامع... فإننا نعتصم بالأصل «الثقافي» للحياة الاجتماعية على هذا الصعيد، من خلال ميزان التعامل الإنساني المقرر بجلاء في القرآن الكريم: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨). ودلالة اللفظين: «تبروهم» (البر: قمة الإحسان في المعاملة) و «تقسطوا إليهم» (القسط: قمة العدل) مؤكدة للمعنى الذي نشأت عنه التجربة العامة في واقع المسلمين، والتي لا تمثل الاستثناءات والشذوذ عن الحالة العامة إلا تأكيدا لأصليتها.

ج) الأساس الاقتصادي

يرى أكثر المنصفين من مؤرخي الحضارة الإسلامية أنه لو لم تبدع هذه الحضارة سوى نظام «الوقف» كنظام يحقق هدفا مزدوجا يتجلى في الأمن الاقتصادي البعيد المدى لقطاعات معينة في المجتمع من خلال ريع الأوقاف من جهة، وضمان حد أدنى من استقلالية المجتمع، لو لم تبدع الأمة الإسلامية انطلاقا من أصول ثقافتها سوى هذا النظام لكان ذلك كافيا للحديث عن القاعدة الاقتصادية الصلبة في البناء الإسلامي.

إلا أن نظام الوقف ليس نظاما وحيدا في هذا الباب، ففي الشريعة الإسلامية واجبات وأحكام تعبدية –أي أنها شديدة الارتباط بأصل التدين عند المسلمين– لا تتم إلا عبر الإنفاق المادي، أي المساهمة الاقتصادية في توطيد أسس البناء الاجتماعي. وهنا تأتي أهمية الزكاة بوصفها ركنا إسلاميا وواجبا تعبديا ذا أبعاد اقتصادية واجتماعية، والكفارات عن طريق الإطعام أو العتق في حالات الصيام والأيمان والظهار وغير ذلك.

إن الأساس الاقتصادي في بناء الأمة الإسلامية شديد الارتباط بطبيعة هذه الأمة لجهة قيامه على قاعدة دينية تربط الإنفاق بالجزاء الأخروي حتى لو كان من صميم الواجب، ولما تتسم به منظومته في الأحكام المالية من نزعة اجتماعية ظاهرة، فالمجتمع الإسلامي هو بالضرورة مجال الإنفاق والفرد المسلم وغير المسلم ممن يعيش في مجتمع المسلمين هو من يقطف في النهاية ثمرة هذه المبادئ الاجتماعية التي توجه الفعل المالي والسلوك الاقتصادي في الإسلام.

٢. خصائص الأمة الإسلامية

يفرض التأسيس العلمي لمفهوم الأمة الإسلامية تلمس الخصائص المميزة لها، والتي يخلص إليها من خلال الأساس الثقافي في علاقته بعقيدتها وقيمها، ولعلها من التعدد بما يناسب تطور تجربة الأمة التاريخية المؤسسة على هذه العقيدة وتلك القيم، غير أن أهم هذه الخصائص أربعة هي:

أ) أنها أمة التوحيد الخالص: توحيد الألوهية لله تعالى وتوحيد الربوبية الذي يجرد الناس من خصائص الألوهية. وتوحيد الأسماء والصفات الذي يتيح للإنسان التطلع إلى آفاق الجمال في الأخلاق والصفات (صفات الجمال)، فيستزيد منهما دون أن يتجاوز طبيعته البشرية التي تقصر به عن مسؤولية الاتصاف بصفات الجلال. وهذا التوحيد الخالص لا ينفذ إليه إلا بدوام القراءة في كتاب الله المسطور (الوحي) وكتاب الله المنشور (الكون).



ب) أنها أمة العلم: بدليل أن أول ما نزل من القرآن على النبي ﷺ لم يكن: «اعمل» ولا «جاهد» بل ولا حتى «اسجد» أو «اعبد»، إنما كان قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١). فالقراءة هي مبتدأ الوحي والمدخل إلى إدراك قيم الأمة وتصورها والوسيلة التي تتجدد بها معاني الدين في نفس الإنسان وعلاقته به (قراءة القرآن). ولأنها كذلك فقد أجمل القرآن رسالة النبي ﷺ في قوله سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة:٢).

جـ) أنها الأمة الحافظة لتراث النبوات: انطلاقا من المعنى القرآني الذي يشير إلى القرآن كمصدق لرصيد الوحي في الرسالات السابقة، ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر ٣١-٣٢).

د) أنها أمة الحوار: فطبيعة المرجعية التي توجهها طبيعة حوارية، ذلك أن القرآن الكريم هو في أحد وجوهه كتاب منهج الحوار بامتياز، ليس لأنه أورد حوارات الأنبياء مع أقوامهم كعناصر عبرة وتدبر فحسب، بل لأنه اتسع لذكر القول المخالف، وهو قول يحكم المنطق القرآني عليه بالتهافت دون أن يكون ذلك مانعا من إيراده على لسان أصحابه قبل الجواب بالدليل الناصع والحجة البالغة، وفي القرآن نماذج كثيرة لهذا الخطاب «سيقول السفهاء...، ويقول الذين كفروا...، إذا جاءك المنافقون قالوا...». ثم إن مبدأ الإقرار لكل بما عنده من الحق كائنا من كان قائله سمة أخرى من سمات الخطاب القرآني. وعلى هذا كانت الأمة الإسلامية مدعوة إلى أن تجادل غيرها بما هو فوق المنهج والأسلوب الحسن (بما هو أحسن) ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥).

لا شك أن تلك الخصائص وتلك الأسس قد ضمنت للأمة قابلية عجيبة للبقاء عبر مراحل التاريخ، رغم إرادات الإفناء والاقتلاع الهائلة التي قوبلت بها، وهجمات الإبادة التي قل أن عرف التاريخ لها مثيلا وليس آخرها الهجمة الاستعمارية الشاملة على كل مقومات حياتها مادية كانت أم معنوية. ومن هنا تبدو الأهمية الحاسمة لتلك الأسس والخصائص بالنسبة للأمة الإسلامية اليوم في ظل التحديات الجسام التي لا زالت تواجهه، بل التي باتت اليوم تتخذ منحى تصاعديا، لا يضمن معه نجاح التحدي إلا بإعادة إنتاج القيم التي ضمنت لهذه الأمة البقاء ماضيا وحاضرا، وهي كفيلة بأن تضمن لها الخلود مستقبلا.

* مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – وجدة / المغرب.

حراء (١)

حسن الأمراني *

(سيرة ذاتية لصاحب اللواء)
عندما أشار مرافقنا، عند مدخل قصر طوب قابي، إلى نقطة في الأرض، وقال: هنا كان يركز اللواء لتنطلق جموع الفاتحين إلى الجهاد، أكب بعضهم على وجهه مقبّلا الأرض، ثم جعلت قطعة قماش مباركة تطوف من شفة إلى شفة.

روح وطين

لقد لثمت شفاههم التّرابا ... ويلثم قلبيَ النّورَ المذابا
رحلتُ إلى الضياءِ وقد أقاموا ... ومن رضي الهدى اجتاز السحابا
وما سيّانِ قلبٌ مطمئنٌّ ... وقلبٌ راح يضطرب اضطرابا
ولي بالمصطفى نسبٌ عريقٌ ... ولا آلو بحبّيه انتسابا
إذا ما جئتَ روضته بقلبٍ ... مشوق يسكب الدمع انسكابا
ونار العشق تستعر استعارا ... وقد عذب المقام بها وطابا
فقد بُلّغْتَ إربك دون شكّ ... ونلت مراد قلب قد أنابا
فيا قلبي الحزينَ إذا ادلهمّت ... خطوب تسرق الذلق الصوابا
فيمّمْ شطْرَ نور أحمديّ ... تدفّقَ من ´حراءٍ مستطابا
إذا اعتزلت جوانحنا الخطايا ... على التقوى فقد وعت الخطابا
ولولا ما تلألأ من (حراءٍ) ... فجلّل نوره شَعَفاً ذؤابا
لما طُرد الظّلامُ عن الحيارى ... وكان الظّلم للدنيا قِرابا
فنوّر يا إلهي من سناه ... سراديبي فإنّ القلبَ آبا
وخلّفَ ما تقدّم من خطايا ... وجاءك يرتجي منك المتابا
وإن تكن الذّنوب تكنّفَتْه ... فذاق بحرّ جاحمها العَذابا
فمنك برحمة وجميل فضلٍ ... يصير البحر أنهارا عِذابا

كؤوس الحزن

أنا في مجْمَع البحْرينِ أتلو ... من الفرقان آيات عِجابا
وقلبي في (حراءَ) له أزيز ... يُفتّت رجعُه الصمّ الصلابا
(لو انزلنا) دليلك يا فؤادي ... إذا جئت المفاوز والشعابا
وللعشق المجازيّ التهابُ ... يقدّ جوانحاً، ويسدّ بابا
وللبرق الحجازيّ اصطخابُ ... يُحلّ القلبَ أوديةً رغابا
وللحُسْن الشرازي انتسابُ ... إلى البطحاء ما كان اجتلابا
وقد طرقتْ يدُ الألطاف قلبي ... وما أحرى المجيبَ بأن يجابا
يزلّ العبْدُ ثمّ له مآبُ ... فما لك قد أطلت له العتابا ؟
وقدْ صيّرتَ دمع القلب بحراً ... وللإبحار أعْددْت الركابا
هيا رباه أنضيتُ المطايا ... وطفت مفاوزاً، وقطعت غابا
فما أدركت من وطري نقيرا ... ولا ألفيت في دربي صحابا
كأني كنت أحرث في بحارٍ ... وأودع بذرة العمر العبابا
ألم تر أنني أنفقت عمري ... مع الأهواء أستسقي السرابا؟
فكم ليلى اصطفيتُ وكم سعاد ... رجعت بها الطفولة والشبابا
فلما صوّح الوردُ استبانتْ ... ملامحُ هذه الدنيا خرابا
وقلت لمن بسطتُ لها يميني: ... قطعت العمر شوقا واغترابا
فلما جئت ورْدكِ لم يزدني ... سوى ظمأ .. ولم أملك خطابا
أإقبالا وإدبارا، وبردا ... ونارا، وابتعادا واقترابا؟
ويا نفسي التي أترعت حزنا ... وذقت مرارة الهجر انتحابا
كؤوس الحزن أعذب من كؤوس ... توَرّثكِ العذاب والارتيابا
ولسع السّيف أهون من جحيمٍ ... تقدّ الهام أو تفرى الذنابى
وما الحسراتُ إلا في المعاصي ... وإن أوتيتَ جنّاتٍ نصابا
وفي الطاعات نور ليس يفنى ... وكأسُ الموت بالطاعات طابا

طرقتُ يبادر الدنيا اختلاسا ... وذقت طعامها شهدا وصابا

فلم أر مثل ذخرك أنت ذخراً ... ولم أر غير بابك - ربّ - بابا

ألنني يا عظيم العفو عفوا ... فإنّ الذنب أوسعني عقابا

تقر الشامخات ولا قراراً ... لعبد خاف من غده الحسابا

سرحة مالك

أنا بمدارج العشّاق فذّا ... كهمْس المُزن ينصبّ انصبابا

أرى العُشّاق يصطرخون حولي ... سكارى ما تحير لهم جوابا

ولي من نشوة الصّحو احتراق ... أذاب القلب واصطلم الإهابا

كأنّ هدير أوقيانوس وجدٍ ... تغلغل في الحشا لمّا أهابا

أتاني من شميم عرار نجد ... خطاب، يفتدي دميَ الخطابا

له من أبجديات المعاني ... حروف تمنح القلب الشبابا

أتاني والصواعق مرسلات ... كأنّك شاحذ ظفرا ونابا

وعصف الريح يقتلع البرايا ... كما أعددت للحرب الحرابا

أتاني فالربيع له انطلاق ... يغنّيك (الليالي) و(العتابا)

فيا أكرومة الحيّين رفقا ... وقاك اللّه سهماً قد أصابا

وبلّغكَ المكارم سابغاتٍ ... ولقّاك النعيم المستطابا

خُلقتِ أميرةً تطأ الثريّا ... محاسنُها منعّمةً كعابا

لماذا أنت هادئة شهودا ... لماذا أنت عاصفة غيابا؟

فهل أشتط يوما في دعائي ... وأستسقي رحيقك والملابا؟

وأطمع في ثيابك سندسيّا ... ومن بستانك الخضر الرطابا؟

وتلك الكأس تشرق في يميني ... سنا الإيمان يعلوها حبابا

وما لي حين أهتف باسم ليلى ... يقول الناس شيخ قد تصابى؟

كأنْ لم يهتف العبّاد قبلاً ... وقسّ لم يرَ العشق اللّبابا

لئن كنّيت قد كنّى ابن ثور ... وسرحة مالك برزت كعابا

وإن صرّحت فالمجنون قبلي ... أفاض، ومن أفاض فقد أنابا

ومن شرف الهوى أني صريحٌ ... يوقّع شاعرٌ ليس ارتيابا

أخاف يزلّ إن أنطقْ لساني ... وإن أصمتْ يكن صمتي انتحابا

بذلت الروح في الغمرات حبّا ... ولم أطلب على الحبّ الثوابا

فجاء دعاؤك الموفور سيبا ... نديّا يبعث الأرض اليبابا

لماذا جئتِني والقلبُ عارٍ ... وثوب العمر ينتهب انتهابا؟

يذكّرني جمالكِ حين يبدو ... جنان الخلد مونقة رحابا

وضوء الشمس خلف الغيم أبهى ... وأعذب وهو ينسكب انسكابا

ويحملني سناك إلى سناها ... ويكشف دونَ غَرفتها النقابا

تحدّر مزنك الفوّاحُ طيبا ... سماويّا ولم يعرف سحابا

وشمس الحقّ من فوديك راحت ... تضيء بأمر باريها الهضابا

كطيف يمامةٍ عبرتْ قرونا ... إليكَ ممالك العشق انسيابا

لئن آنستُ عند حِماك وِردا ... لقد لاقيت من نصَبي نِصابا

فقل لابن الملوّح وهو يتلو ... من الصبوات شعرا مستطابا

إذا ما العشقُ لم يُبْلغْك داراً ... منعّمةً غدا عشقا كِذابا

وقل للعامريّة حيث حلّت ... وقد لبست من التقوى ثيابا

سبيلُ النور أنت بدون شكّ ... ومن يبْصر حقائقه استجابا

فسبْحان الذي سوّاك سرّاً ... عن الخطرات والأذهان غابا

خديجة كانت الدّرع الموقّى ... وكان لمريَمَ التقوى حجابا

وللزهراء سرّ أحمديّ ... دم السّبطين صار له جرابا

وكان مدينةً للعلم طه ... وكان المرتضى للعلم بابا

إستانبول: ٣١ يوليوز ٢٠٠٥/٢٥ جمادى الآخرة ١٤٢٦.

* رئيس تحرير مجلة المشكاة – المغرب.



حدوث الكون

حقيقة قررها الدين وأثبتها العلم

أورخان محمد علي *

هـذا الـكـون الشـاسـع والـواسـع الـذي لا يـرى الإنسـان لـه حدودا . . . هذا الكون المثير كان محط تساؤل الإنسان وإعجابه وفضوله وإجلاله منذ القديم . وكانت الأسئلة المثارة في ذهنه حوله كثيرة وصعبة:

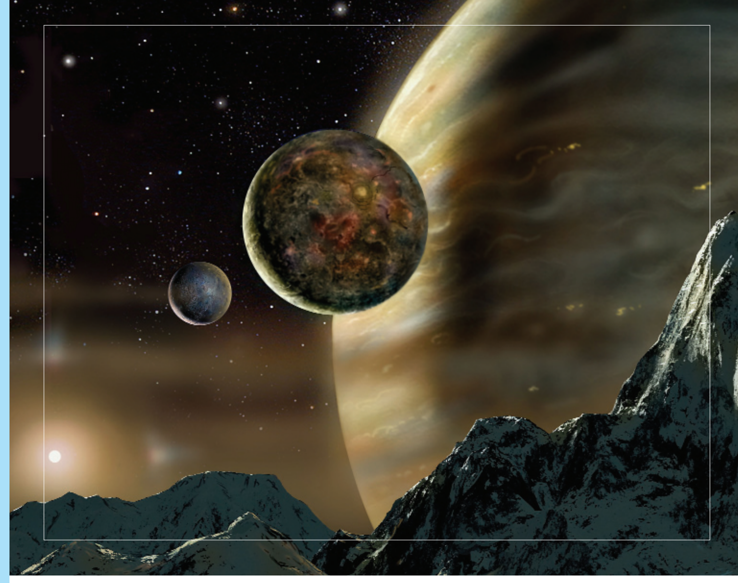
فكيف ظهر هذا الكون إلى الوجود؟ وما عمره؟ أحادث هو أم قديم وأزلي؟ وهل يمكن أن يكون هناك أزليان: خالق أزلي وكون أزلي؟ وهل تقدم الخالق على الكون تقدم في الزمان أم تقدم في العلية أي تقدم العلة على المعلول؟

هذه بعض الأسئلة التي كانت محل نقاش بين الفلاسفة المؤمنين مئات الأعوام . أما الفلاسفة الملحدون فكانوا يدعون أن الكون لا يحتاج إلى خالق لأن المادة أزلية ، أي وجدت من القديم ، أي كانوا يضيفون إلى المادة إحدى صفات الخالق وهي صفة الأزلية . لذا كان من ضمن قوانينهم الفيزيائية: «لا يمكن خلق المادة من العدم ، كما لا يمكن إفناء المادة» .

ولكن الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله كان أول من حل مشكلة قدم العالم وأجاب على جميع المشاكل المثارة حول مدة الترك ، أي الفرق الزماني بين الأزل وبين بدء خلق الكون ، فقال بأن الكون حادث وأنه لم يكن قبله زمان ، أي أن الزمان والمكان بدآ بعد خلق الكون ، لأن الزمن مرتبط بالحركة ، ولو تصورنا أن كل شيء في الكون قد سكن وتوقف إذن لتوقف الزمن ، أي لم يعد هناك زمان . وهكذا فمن الخطإ توهم وجود زمان قبل خلق الكون . وقد كان هذا الحل حلا عبقريا يشير إلى القدرة العقلية الكبيرة للغزالي رحمه الله . وعندما أشارت نظرية النسبية إلى أن الزمن بعد رابع كان من البديهي عدم وجود الزمن في عالم لم تخلق بعد أبعاده الأخرى .

لا نريد هنا أن ندخل في تفاصيل فلسفية قد يسأم منها القارئ الاعتيادي ولا يستسيغها . ولكننا نريد أن نشير هنا إلى آخر نظرية علمية حول مولد الكون وكيف أنها أثبتت بأدلة علمية بأن الكون حادث وأنه ولد قبل كذا مليار سنة .

والحقيقة أن اكتشاف الإنسان لظاهرة الإشعاع كان أول ضربة لنظرية أزلية المادة . فما دامت الشمس وجميع النجوم الأخرى مشتعلة



وتبعث الإشعاعات، إذن فلا بد من وجود بداية لها، لأنها لو كانت أزلية لنفد وقودها منذ مليارات السنوات. ولكن العلماء الملحدون تناسوا هذه الحقيقة الظاهرة لكل عين واستمروا في الدفاع عن كون أزلي لا يحتاج إلى خالق... كون نشأ في كل هذا النظام والدقة الرائعة وصور الجمال عن طريق صدف عشواء وعمياء. وكانت نظرية الكون المستقر التي كانت هي النظرية المقبولة في الأوساط العلمية حتى منتصف القرن العشرين تقول بأن الكون ساكن وهو لانهائي في الزمان والمكان.

كان هذا الأنموذج للكون يريح الفلاسفة الملحدين ويقدم لهم سندا علميا، أو في الأقل لا ينقض أهم دعوى عندهم وهي أزلية المادة.

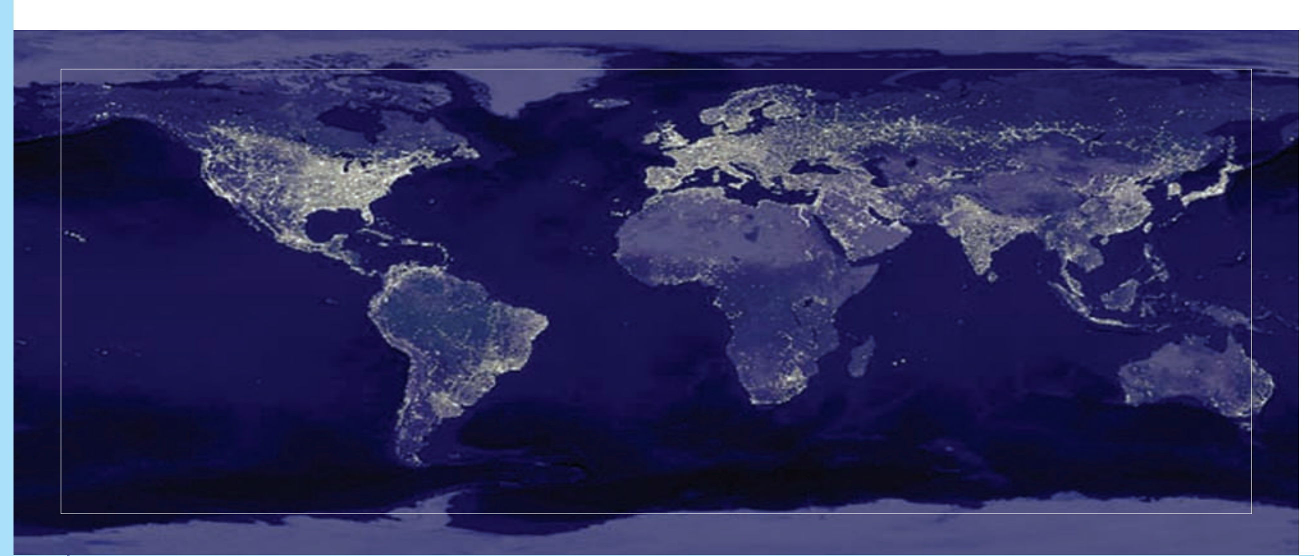
ولكن علم الفيزياء كان يقدم وسيلة مهمة في معرفة العديد من خصائص الأجرام السماوية والنجوم بواسطة تحليل طيف الأضواء المنبعثة من هذه النجوم. ومن هذه المعلومات أن طيف ضوء النجم المبتعد عنا ينزاح نحو اللون الأحمر، أما طيف النجم المقترب إلينا فينزاح نحو الأزرق. وقد كشف «فاستو مالفن سليفر» عام ١٩١٣م أن بعض الأجسام التي كان يعتقد سابقا أنها غبار كوني تبتعد عنا بسرعة ١٨٠٠ كم/ ثانية. وكان هذا الاكتشاف مفاجأة كبيرة للعلماء، ولم تكن تلك الأجسام إلا مجرات بعيدة عنا. ثم أعلن «أدوين هوبل» عام ١٩٢٩ قانونه المعروف: «إن المجرات تبتعد عنا بسرعة تتناسب طرديا مع بعدها عنا».

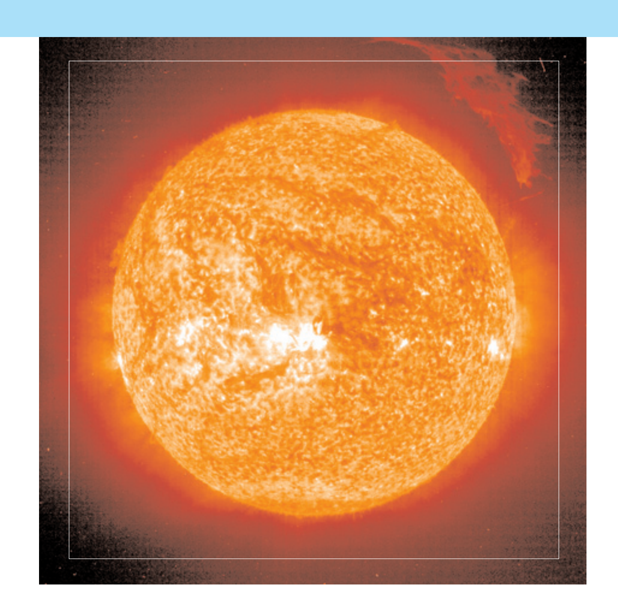
وقد تبين فيما بعد أن المجرات لا تبتعد فقط عنا، بل هي تتباعد فيما بينها كذلك. وكان هذا يعني أن الكون يتوسع على الدوام مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات :٤٧).

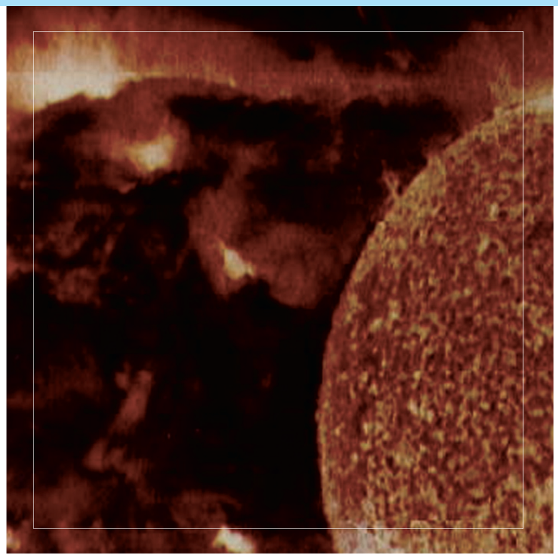
إذن فقد تغيرت صورة الكون عن الصورة السابقة التي كانت تقدمها نظرية «الكون المستقر». وما دام الكون في توسع دائم، إذن لو شغلنا الفيلم عكسيا، أي إلى الوراء، فمن الضروري أن الكون كله كان متمركزًا في السابق في نقطة واحدة أطلق عليها العلماء اسم «الذرة البدائية» أو «الحساء الكوني».

ولكن أي قوة تقوم بقذف مائة مليار مجرة بسرعة جنونية مبعدة الواحدة عن الأخرى وموسعة الكون نتيجة هذا التباعد السريع؟ لا يمكن أن تكون قوة الجاذبية أو قوة التنافر الكهربائي بين الأقطاب المتشابهة هي هذه القوة. فقوة الجاذبية قوة تحاول جذب الأجرام السماوية نحو المركز وليس إبعادها نحو الخارج. كما أن قوة التنافر الكهربائية أضعف بكثير من القيام بمثل هذه العملية. ونظرا لوجود تعادل كهربائي في الكون، فمثل هذه القوة لا وجود لها تقريبا بين الأجرام السماوية.

إذن فلا بد أن انفجارا هائلا حدث عند ميلاد الكون هو الذي أدى إلى توسع الكون. وقد أطلق العلماء على هذا الانفجار اسم «الانفجار الكبير». وبعد إجراء بعض التعديلات على نظرية الانفجار الكبير فإن الصيغة الحالية لها باختصار هي: «إن انفجارا هائلا وقع في







هذه الذرة البدائية التي كانت تحتوي على مجموع المادة والطاقة. وفي اللحظات الأولى من الانفجار الهائل ارتفعت درجة الحرارة إلى عدة تريليونات حيث خلقت فيها أجزاء الذرات، ومن هذه الأجزاء خلقت الذرات، ومن هذه الذرات تألف الغبار الكوني الذي نشأت منه المجرات فيما بعد».

والحقيقة أن وجود «الذرة البدائية» أو «الحساء الكوني» تخمين قدمه بعض العلماء، بينما قال علماء آخرون بأن بداية الكون كانت نقطة حجمها صفر وكتلتها لانهائية. وليس مفهوم «كتلة حجمها صفر» إلا تعبيراً آخر عن العدم، أي أن الكون خلق من العدم.

متى حدث الانفجار الكبير؟

لا يوجد رقم قطعي في هذا الخصوص. ولكن إذا تذكرنا أن «ثابت هوبل» لمليون سنة ضوئية هو ١٥,٣ كم/ ثانية حصلنا على رقم ٢٠ مليار سنة. ولكن علينا ألا ننسى بأن سرعة توسع الكون وتباعد المجرات ليست ثابتة وأنها كانت في السابق أسرع، لذا فإن تاريخ الانفجار في الأغلب كان قبل ١٥ مليار سنة تقريبا. وهذا هو الرأي المرجح حاليا.

من الأدلة المهمة على نظرية الانفجار الكبير هو وجود الإشعاع الكوني. فقد قال العلماء بأنه لو كان هناك مثل هذا الانفجار لكان من الضروري أن يخلف وراءه إشعاعا. وفعلا تم العثور على هذا الإشعاع عندما أرسلت مؤسسة «ناسا» الأمريكية لأبحاث الفضاء قمرا صناعيا لغرض التثبت من هذا الإشعاع عام ١٩٨٩م وزودته بأحدث الأجهزة الحساسة. واحتاج هذا القمر الصناعي لثماني دقائق فقط للعثور على هذا الإشعاع وقياسه.

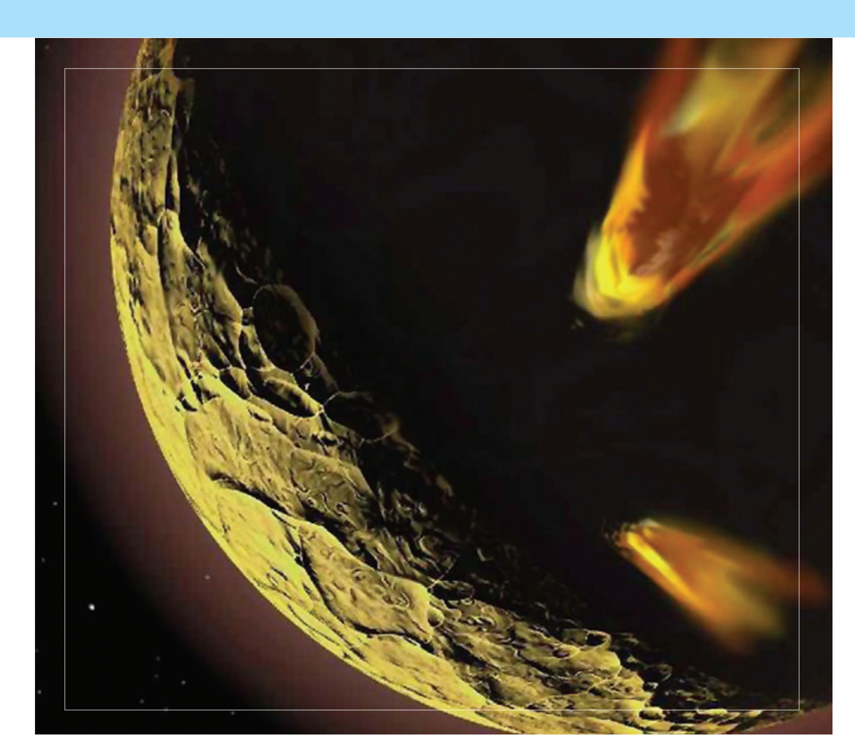
دليل آخر على هذه النظرية هو أن مقادير ونسب وجود غازي الهيدروجين والهليوم في الكون تتطابقان مع حسابات هذه النظرية. ولو كان الكون أزليا لاحترق جميع الهيدروجين وتحول إلى غاز الهليوم.

ولا تكمن أهمية نظرية الانفجار الكبير في الجانب العلمي والفلكي فقط، بل لها تداعيات وإشارات فلسفية مهمة جدا يمكن أن تكون أكثر أهمية من الناحية العلمية والفلكية. فهذه النظرية سحبت سلاحا أو قل عذرا قويا كان يستند إليه الفلاسفة والمفكرون والعلماء الملحدون، لأنها أنهت أسطورة «أزلية المادة وأزلية الكون». فللكون بداية وله عمر محدد يقوم العلماء بحسابه. لقد نبذت فكرة أزلية المادة وأزلية الكون من الأوساط العلمية أخيرا.

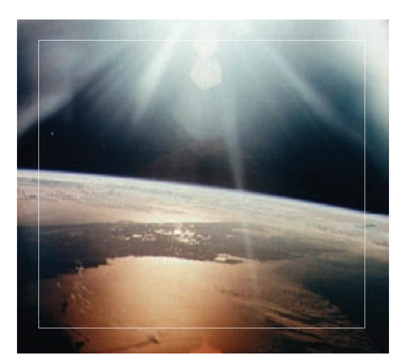
وقد امتعض العديد من العلماء والفلاسفة الملحدين من هذه النظرية. فمثلا يقول الفيلسوف الملحد «أنطوني فلوف»: «يقولون إن الاعتراف يفيد الإنسان من الناحية النفسية. وأنا سأدلي باعتراف؛ إن أنموذج الانفجار الكبير شيء محرج جدا بالنسبة للملحدين، لأن العلم أثبت فكرة دافعت عنها الكتب الدينية. . . فكرة أن للكون بداية».

ويقول العالم «دونيس سكايما» –وكان من أشد أنصار نظرية الكون المستقر– وهو يبدي أسفه على انتصار نظرية الانفجار الكبير: «لم أدافع عن نظرية الكون المستقر لكونها صحيحة، بل لرغبتي في كونها صحيحة. ولكن بعد أن تراكمت الأدلة فقد تبين لنا أن اللعبة قد انتهت، وأنه يجب ترك نظرية الكون المستقر جانبا».

نعم، المادة حادثة وغير أزلية والكون له بداية. إن ثبوت هاتين الحقيقتين يدل على الخلق وأن الكون خلق من قبل الخالق، إلا أن طبيعة هذا الانفجار الكبير أضاف أدلة أخرى على أن الكون خلق بتقدير دقيق ونظام رائع. ذلك لأن أي انفجار لا يكون إلا مخربا وهادما ومشتتا ومبعثرا للمواد، ولكن عندما نرى أن انفجارا بهذا العنف وبهذا الهول يؤدي إلى تشكيل وتأسيس كون منظم غاية النظام، فإن هناك إذن وراءه يد قدرة وعلم وإرادة وتقدير لانهائي فوق الطبيعة. ولم يقتصر عمل الانفجار الكبير على تكوين المجرات







بكل ما تحتويها من مليارات النجوم والكواكب والأقمار والمذنبات والأجسام الكونية الأخرى السابحة في الفضاء بكل نظام، بل عمل أيضا على تشكيل كوكب وهو أرضنا هذه التي توفرت فيها مئات بل آلاف العوامل الدقيقة والمتداخلة بعضها مع البعض الآخر لكي تكون صالحة لحياة الملايين من الأحياء وعلى رأسها الإنسان. وإلى هذا يشير العالم البريطاني المشهور «فرد هويل» عندما يقول: «تقول نظرية الانفجار الكبير بأن الكون نشأ نتيجة انفجار كبير. ولكننا نعلم أن كل انفجار يشتت المادة ويبعثرها دون نظام. ولكن الانفجار الكبير عمل عكس هذا بشكل محفوف بالأسرار، إذ عمل على جمع المادة معا لتشكيل المجرات».

من أهم أسرار هذا الانفجار الكبير هي السرعة الحرجة التي وُهبت لهذا التوسع الكوني عقب هذا الانفجار. وإلى هذا يشير العالم البريطاني المعروف «بول ديفز» عندما يقول: «لقد دلت الحسابات أن سرعة توسع الكون تسير في مجال حرج للغاية. فلو توسع الكون بشكل أبطأ بقليل جدا عن السرعة الحالية لتوجه إلى الانهيار الداخلي بسبب قوة الجاذبية. ولو كانت هذه السرعة أكثر بقليل عن السرعة الحالية لتناثرت مادة الكون وتشتت الكون. ولو كانت سرعة الانفجار تختلف عن السرعة الحالية بمقدار جزء من مليار × مليار جزء لكان هذا كافيا للإخلال بالتوازن الضروري. لذا فالانفجار الكبير ليس انفجارا اعتياديا، بل عملية محسوبة جيدا من جميع الأوجه وعملية منظمة جدا».

ماذا نستنتج من كل هذه الشواهد والمعلومات العلمية؟

يشرح «بول ديفز» النتيجة الحتمية لهذه الدلائل والتي لا تقبل النقاش فيقول: «إن من الصعب جدا إنكار أن قوة عاقلة ومدركة قامت بإنشاء بُنية هذا الكون المستندة إلى حسابات حساسة جدا. إن التعبيرات الرقمية الحساسة جدا والموجودة في أسس الموازنات في الكون دليل قوي جدا على وجود تصميم على نطاق الكون».

أما العالم الفيزيائي المشهور «ستيفن هوفكن» فهو يتناول في كتابه «التاريخ المختصر للزمن» الدقة المذهلة الموجودة لسرعة توسع الكون في الثانية الأولى الحرجة من الانفجار الكبير فيقول: «إن سرعة توسع الكون سرعة حرجة جدا إلى درجة أنها لو كانت في الثانية الأولى من الانفجار أقل من جزء واحد من مليون × مليار جزء لانهار الكون حول نفسه قبل أن يصل إلى وضعه الحالي».

إذن هذا هو مبلغ الدقة المذهلة في تنظيم هذا الانفجار الكبير وفي تصميم سرعته. والنتيجة الحتمية التي يصل إليها عالم الفلك الأمريكي «جورج كرنشتاين» في كتابه «الكون التكافلي» هي: «كلما دققنا الأدلة واجَهتنا على الدوام الحقيقة نفسها، وهي أن هناك قوة عاقلة فوق الطبيعة تدخلت في نشوء الكون».

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(إبراهيم: ١٠) ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣).

* كاتب وباحث تركي.

لفح النار

أشرف أونن *

كان حكمت عاملا مجتهدا في مخبز البلدية، وكان آخر من يغادر المخبز غالبا. كان فرن المخبز كبيرا يحتاج في بعض الأحيان إلى تنظيف، وكثيرا ما يقوم حكمت بهذا العمل.

كان اليوم الأخير لأحد الأعياد. غدًا تنتهي العطلة الرسمية وتعود البلدية لبيع الخبز من جديد. ذهب حكمت في ساعة متأخرة من الليل إلى المخبز لينظف الفرن الرئيسي. دخل المخبز وقفل الباب الخارجي، سينظف الفرن ويعود إلى منزله فورا، وعندما يأتي العمال في الساعة الرابعة فجرا سيجدون الفرن نظيفا، فيضغطون على الزر الكهربائي لإيقاده، وما هي إلا دقائق حتى تحصل الحرارة المطلوبة بينما يكونون هم قد انتهوا من العجين وأعدوه للخبز.

كان حكمت في الفرن الرئيسي مستسلما لعمله منفصلا عما حوله تماما. وفي تلك الأثناء بالضبط دخل المخبز زميله راغب ليأخذ ملابسه المتسخة للغسل. فتح الباب الخارجي في حيرة، وتمتم قائلا: «عجيب! أبلغ الإهمال إلى هذا الحد ليتركوا الأنوار مفتوحة في الداخل؟» تناول ملابسه واتجه نحو الباب الخارجي فوجد باب الفرن مفتوحا، فدفعه برفق، ولم يهمل إطفاء الأنوار.

وما كادت الأنوار تنطفئ حتى هرع حكمت إلى باب الفرن بارتياع، لكن دون جدوى إذ كان الباب مقفلاً. أخذ يصرخ بما لديه من قوة صوت، وضرب بقبضتيه الباب بشدة ومرات متكررة بلا فائدة. لا أحد يسمع صوته ولا أحد يشعر بأنينه وصراخه. اقشعر جلده واعترته رجفة عنيفة وأخذته دهشة رهيبة.

لم يصح من الصدمة لمدة طويلة... نظر إلى الساعة... الحادية عشرة وخمس دقائق... لم يبق سوى خمس ساعات فقط. خمس ساعات بينه وبين الموت. الموت يقف ماثلا محددا أنظاره النارية إليه مكشرا عن أنيابه المرعبة. ها هو سيلقى في نار جهنم قبل أن ينتقل إلى دار الآخرة.

أخذ يتخيل ما سيحدث، ستزداد حرارة الفرن رويدا رويدا، وسيشعر أولا بالعرق يبلل كل جسده، ثم ينفد الهواء النقي وتطبق عليه الجدران حتى تخنقه، وتكثر الحرارة وتتلظى النيران ويتميز المكان غيظا وحدة، ويأخذ دهن جسده يذوب ببطء، وتلفح ألسنة النار لحمه فتشويه. ومن يدري فقد يموت قبل أن تحدث كل هذه الأمور بسكتة قلبية، أو قد يفقد عقله ويصرخ كالمجنون. آه ليته يجن، الجنون أفضل شيء في مثل هذا الموقف، إذن ينجو من عذاب نار التفكير المتأججة في دماغه.

وتذكر لذع الحرارة عندما كان يخرج الأرغفة من الفرن المضطرم، ذلك القدر من الحرارة فقط لم يكن يطيقه فيلقي بالأرغفة من يديه فورا. ولكن ها هو سيشوى الآن حياً.

قبل بضعة أيام بينما كان يغلي شايا على موقد صغير مع زملائه مست يده طرفا من الحديد المحمر كالجمر، يا إلهي، كم كان الألم فظيعا وكيف انتفخت أصابعه بسرعة، فأسرع بوضعها في الماء البارد لمدة طويلة عله يخفف من آلامه. أما الآن، فلن يحترق أصبع أو أصبعان بل كل جسده وكل ذرة في جسده. تمثلت أمام عينيه مشاهد من بعض الأفلام، رجال وقد اشتعلت فيهم النار تأكلهم وهم يتلوون يمنة ويسرة ويسقطون على الأرض دون جدوى ويصرخون بجنون ويستغيثون حيث لا مغيث.

كأن الحرارة ارتفعت... هل ضغط الرجل على مفتاح الفرن حين أغلق الباب يا ترى؟ وإلا لماذا ارتفعت حرارة المكان هكذا؟ يا إلهي! هل حانت اللحظة الفظيعة؟! نظر إلى ساعته مرة أخرى، النصف بعد الواحدة ليلا... كيف مضت ساعتان بهذه السرعة؟ مضت الدقائق كالريح الجارية، كالعمر تماما. مد يده إلى الجدران الحديدية بخوف ولمسها بأنفاس متلاحقة وقلب يكاد يفر من مكانه. تنفس الصعداء... ما زال الحديد باردا.

حملته خواطره إلى المنزل، لا شك أن زوجته وولده الوحيد قلقان الآن بشأنه. لماذا صرخ بوجه زوجته قبل أن يغادر المنزل، هل استحقت ذلك يا ترى؟ كان عليه أن يكون أكثر رقة لرفيقة حياته. ليته لم يضرب ولده الوحيد. لا ريب أنه مسؤول عنهما أمام الله وسيؤدي حسابهما أيضا. ليته فعل ما أشارت إليه زوجته حين قالت له: «أتوسل إليك أن تصلي يا عزيزي» لكنه رفض محتجا: «دعينا نستمتع بالحياة، ما لنا وللصلاة في ربيع حياتنا؟» كأن الإنسان سيحاسب عن مرحلة الشيخوخة فقط وليس عن العمر كله. لماذا لم يذهب إلى المسجد الذي يقع على طريقه؟ ألم يسمع مرات ومرات المؤذن وهو يعلن من

أعماق قلبه عظمة الخالق ويدعو الناس إلى سبيل النجاة؟ لو أنه استجاب إلى داعي الصلاة هذه الليلة لتمكن من أداء صلاة وقت على الأقل، وإن كانت أول وآخر صلاة. ومن يدري، لعل الله يشفع له بفضل هذه الصلاة فيغفر له ذنوب الأوقات الأخرى التي أهملها طوال حياته. أما الآن فهو ذاهب إلى الله بوجه خال من نور السجود. ليتني كنت ممن تتلألؤ وجوههم بنور الصلاة.

ماذا عن ولدي؟! إنه في السابعة من عمره. لماذا لم أهتم بتكوين قلبه وروحه بقدر ما اعتنيت بإشباع بطنه وإلباسه الملابس الجميلة؟ لماذا لم أوجهه توجيها سليما ينير له طريق الحياة؟ لماذا لم أنقش في قلبه حب الله ورسوله، بل لماذا نسيتهما أنا وأسلمت نفسي إلى غفلة أنستني أنني لست مخلدا في الحياة وقد أفارقها في أية لحظة؟ لماذا؟

ثم شردت به خواطره إلى صباه ثم إلى أيام شبابه، واستعرض فصل الشباب يوما بعد يوم، فلم يجد سوى الذنوب والأخطاء التي يستنكرها كل قلب سليم ويستحيي منها كل عقل بصير. مرت جميع أخطائه أمام عينيه، يا إلهي، هل أحاسب على كل هذه الأخطاء؟ رباه...

لمعت في خاطره فكرة كالبرق؛ أن يتيمم في الفرن ويصلي، ولكن أين التراب؟ ليكن، ذلك أفضل من أن أذهب مسود الوجه إلى ربي، ورحمة الله واسعة. ضرب بيديه على مكان في الفرن وتيمم ووقف للصلاة. أليس هو الملاذ الوحيد الذي يلجأ إليه كل مضطر في اللحظات التي تسد فيها جميع الأبواب؟

لأول مرة في حياته يحس بأنه يتحدث إلى خالق السماوات والأرض بينما المفروض أن يرتشف الإنسان من هذا النبع في كل صلاة. ولأول مرة يدرك بعمق معنى الالتجاء إلى الله والاستعانة به وحلاوة مناجاته. وسجد حكمت لمبدع الزمان والمكان بجميع كيانه، وناجاه بصوت ملؤه الإخلاص شاعرا بعجزه اللانهائي: «يا أعظم من كل عظيم يا أرحم من كل رحيم...»

بعد أن أدى صلاة العشاء أخذ يقضي ما فاته من الصلوات. أجل إنا لله... وإنا إليه راجعون... إنه الآن يدرك هذه الحقيقة بكل ذراته. ليته لم ينس أبدا أن المصير إليه. ولما شعر بالتعب جلس وأخذ يستغفر الله بصوت حزين ودموع صادقة. وكلما أفاق من استغراقه العميق وذكر أنه مسجون في هذا المكان الضيق شعر بأن الجدران تصب عليه نارا سوداء.

أما راغب فقد ذهب إلى بيته واستغرق في نوم عميق. لكنه فجأة انتفض من نومه، نظر إلى ساعته، الثالثة والربع. أعوذ بالله، رؤيا مرعبة، صديقه حكمت يحترق في الفرن وسط نيران متأججة ويصرخ بصوت يمزق الأحشاء «راغب! راغب النجدة! النجدة! راغب!» ما هذه الرؤيا؟

فجأة برق في ذهنه خاطر رهيب... رباه! هل أغلق باب الفرن على حكمت يا ترى؟! هرع إلى الشارع كالريح خشية أن يكون قد فات الأوان.

أدخل المفتاح بارتباك، فتح الأنوار وأسرع نحو الفرن، فتح الباب وصاح: «حكمت!» لم يسمع سوى صدى صوته. هتف عدة مرات أخرى...

كان حكمت في نفس اللحظة يصلي وسط دموع غزيرة حارة وقد غرق في عوالم علوية سماوية. فانتفض على أثر صوت راغب. كلا هذا مستحيل، لا شك أنه سمع خطأ. فدوى نفس الصوت في أركان الفرن. أجل هناك شخص ما يهتف باسمه مرة بعد أخرى: «حكمت، حكمت، حكمت...» وها هي أنوار المخبز تضيء المكان.

قام من الصلاة بفرحة غامرة وخرج من الفرن مبتهجا فرأى صديقه. انتفض راغب ذعرا وجمد في مكانه مشدوها كأنه رأى شبحا مروعا، كان يرتعد وجلا: «من أنت..؟» فتح حكمت ذراعيه ليحتضن صديقه، غير أن يديه ظلتا فارغتين، قال ودموعه تسيل: «أنا حكمت، حكمت يا رجل، ألا تراني؟ دخلت الفرن ليلا ولا أدري من أغلق علي الباب.» «كلا هذا مستحيل، لا يمكن أن تكون أنت حكمت...»

ماذا يقصد؟ ما معنى هذا التصرف الغريب؟ ما هذا الكلام، أهو وقت مزاح؟ وفجأة خطرت بباله فكرة رهيبة، هرع إلى المرآة ونظر إلى وجهه... لا، لا، لا يمكن أن يكون هذا الوجه وجهه، وهذا الشعر شعره! أخذ يتحسس وجهه الشاحب المتجعد وشعره الأشيب. يا إلهي، لقد هبطت عليه الشيخوخة في ليلة واحدة.

كان كل جسده ينتفض بنشيجه وبكائه. لم يجرؤ على النظر إلى المرآة مرة أخرى. فقد أخافه منظره الذي رآه.

لو أحس الإنسان بحقيقة الاحتراق في النار لشاخت نفوس كثيرة في لحظة واحدة. وظل حكمت هكذا ممسكا برأسه بين يديه مستغرقا في تساؤلاته...

* كاتب وباحث تركي. وهذه القصة حقيقية وقعت في إحدى مدن تركيا.

كيف يفشل الاختيار الطبيعي في التصميم

رؤية عالم رياضيات لنظرية النشوء والارتقاء عند داروين

د. آلب أرسلان دوغان *

«لا بد لكل قرية من رئيس، ولكل إبرة من صانع، بل يجب أن يكون لكل حرف كاتب، فكيف بمملكة هي الغاية في النظام المحكم أن تكون بلا حاكم؟!»

(بديع الزمان سعيد النورسي)

تعطي نظرية النشوء والارتقاء القائمة أصلا على أفكار داروين تفسيراً للحياة على وجه الأرض؛ فلا مكان في هذه النظرية لخالق مقتدر حيث تقوم ميكانيكا التطور من مادة غير عضوية إلى أول شكل من أشكال الحياة ثم إلى أنواع مختلفة من الحيوات التي تنتشر على الأرض وتقوم على الصدفة المحضة واختيار الطبيعة (محو الذرية غير المناسبة).

ويقول «داروين» في كتابه إلى «آسا جراي» -وهو عالم أمريكي متدين- أنه بسبب عدم إيمانه بأن هذا الكون وهذه الحياة قد أبدعتهما يد القادر الرحيم، وذلك لأسباب عقدية محضة وليس لأسباب علمية، فإن عليه أن يعتمد القول بأنّ أصل الحياة هو نتاج ما نطلق عليه الصدفة المحضة.

وبينما تمت صياغة النسخ الحديثة من نظريه النشوء تأسيسا على أفكار داروين الأصلية، فما يزال هناك جانب واحد لا يختلف في جميع النسخ وهو الغياب التام لأي إشارة لخالق بديع أوجد هذا الخلق، والواقع أن أي ظاهرة يمكن أن يكون لها تفاسير متعددة، وهذه الميكانيكية القائمة على الصدفة ما هي إلا تفسير واحد من جملة تفاسير.

وفي العادة نميل إلى أن نربط بين الصدفة وعدم وجود غاية أو هدف واضح، بينما ترتبط الإشارة لخلاق مبدع بالهدف من هذا الخلق، فإذا ظهر لنا أن ميكانيكة ما لا تهتم أو لا تدري ما النتيجة الممكنة للعمل فنحن نطلق عليها أنها قائمة على أساس الصدفة أو الميكانيكا العشوائية، بمعنى آخر نستعير الصدفة حيث لم يبدُ لنا تفضيل أي نتيجة معينة على النتائج الأخرى. وبينما تعد الميكانيكية القائمة على الصدفة تفسيرا واحدا لظاهرة ما فإننا نضعها في الاعتبار فقط حين تكون فرضية تلك الميكانيكية ذات قيمة.

أما إذا كانت الفرضية التي تضعها تلك الميكانيكية غير ذات مغزى فعلينا أن نمحوها ونبدأ في أخذ المتغيرات الأخرى في الاعتبار، وإلا

فسنقع ضحية لما يسميه الرياضي الفيلسوف دمبسكى «صدفة الفجوات»: «إن التفكير الإحصائي يجب أن يكون قادرًا على إزالة الصدفة حينما يظهر أن إمكانية حدوث الحدث قليلة جدًا، وإلا فستكون الصدفة هي التعليل الذي يُلْتَجَأُ إليه لتفسير كل شيء. والعلماء يقاومون بشدة استدعاء ما فوق الطبيعة في التفسيرات العلمية خوفًا من ارتكاب شيء يسمى «إله الفجوات» (وهى نظرية باطلة تستخدم الإله لتغطية الجهل بالشيء). ومع ذلك فلولا وجود قدر من التقييد على استخدام الصدفة لواجه العلماء خطر ارتكاب أمر لا يقل بطلانا من الناحية المنطقية عن سابقه وهو ما يسميه «صدفة الفجوات» حيث يحدث أن تصبح الصدفة كالإله يتم استخدمها لتعليل الجهل.» (دمبسكى: ٩٨).

ولتوضيح هذا المبدأ هيا ندرس أمثلة ثلاثة:

الأول: مقتبس من فيلم يرويه لنا مؤلفه: والحادثة هنا تتعلق بالاختناق المحتمل لشخص ما؛ ففي فيلم «النقر الحلزوني» يلفت المغني الرئيسي النظر إلى أن عازف الطبلة السابق في الفرقة الموسيقية مات مختنقا، ويمكن لأي واحد منا أن يشهق ويبدأ في الكحة إذا غلبنا معظم الهواء المتحرك بسرعة داخل صدورنا، بيد أن حادثة كهذه ليست من الأهمية بمكان ولا نفكر فيها للحظة.

الثاني: آثار الأقدام في الصحراء: حين يرى البدوي آثار الجمل في الصحراء، لا يعزوها إلى الصدفة ولا يعتقد أن الريح شكلت تلك الآثار بالصدفة. ولكن على العكس فهو يفسر تلك الآثار أنها آثار أرجل الإبل التي مرت لتوها في هذا الطريق. وهنا احتمالية أي تفسير قائم على الصدفة ضئيلة جداً، وذلك لأن الآثار التي تسببها الرياح معلومة للأعرابي، لذا فالأعرابي يكاد يكون متأكدا أن تفسير أقدام الإبل هو الأصح حتى ولو لم يرها بنفسه.

الثالث: رواية بجانب الناسوخ (الآلة الكاتبة): تخيل أنك وجدت رواية موضوعة إلى جانب ناسوخ ويجلس بجانبه قرد. إن أحد التفاسير التي يمكن أن تقال هنا أن القرد هو الذي كتب القصة أو أن هذه الكلمات والجمل ذات المعاني هي نتائج الصدفة المحضة. ويمكننا أن ننظر إلى هذا التفسير الذي يقوم على الصدفة من خلال فكرة أنه لم يحدث حتى الآن أن رأينا قردا يقدر الأدب الإنساني؛ ولنعط تفسيرا يجعل من هذا التفسير أكثر احتمالية، فلنتخيل أن القرد كلما أكمل صفحة ينظر شخص فيها، وإن لم يكن لها أي معنى يلقيها بعيدا. إذا افترضنا وجود كمّ لا نهائي من الحبر والورق وافترضنا أن القرد قد استبدل بآخر عندما مات فربما يتوقع المرء بعض أسطر من الكتابة التي لها معنى بعد آلاف الأجيال من القرود. وأثناء عملية الكتابة تتوقع أن ترى جبالا من الورق الذي يحوي أحرفا متتابعة لا معنى لها. فإذا ما استبان لك أن القرد ليس بإمكانه أن يعيش حتى يكتب رواية، وإذا اتضح لك أنه لا سبيل للقرد أن يحصل على ورق كاف، وإذا لم تجد أي ورقة ملقاة. ستحذف هذا الفرض على التو، وستبدأ في اختبار فروض أخرى مثل وجود شخص كان قادرا على كتابة عمل أدبي وأن هذا الشخص كتب الرواية وتركها إلى جانب الآلة الكاتبة. إذن ففكرة أن القرد بإمكانه كتابة قصة عن طريق النقر العشوائي دون العناية بالمحتوى (أي عن طريق الصدفة) احتمال نادر الوقوع ولا يستحق الالتفات إليه.

تظهر هذه الأمثلة مبدأ عاما وهو أن النماذج مستحيلة الاحتمال، والمختارة لا يمكن أن تنتجها ميكانيكية قائمة على الصدفة. فآثار الأقدام في المثال الثاني تبين الأحداث بعيدة الاحتمال، وتوضح كيف يصل المرء إلى نتيجة عن طريق التفضيل أو القصد (أي تفضيل واحد من الأهداف أو قصده دون غيره من البداية).

وطالما أن النشوء والارتقاء كما يقدمه داروين يعتمد على الصدفة، فهناك سبيل واحد ممكن أن تحدث من خلاله عملية التنوع الحياتي على ظهر الأرض؛ ويمكن القيام بهذا عن طريق استفراغ نسبة لا بأس بها من الاحتمالات أو إنتاج كائنات عديمة الجدوى وترك بقايا الكائنات غير الناجحة، وأخيرا إنتاج وإيجاد الكائنات النافعة بعد استهلاك جزء من الوقت والمادة والمكان.

أعمى أم بصير؟

يجادل بعض القائلين بالنشوء أن «لوغاريتم النشوء» يختلف عن البحث الأعمى، لأنهم يضمنونه وظيفة تناسبية تفضل بعض النتائج على بعض. ومن ناحية أخرى تقوم وظيفة التناسبية المتخيلة هذه بتقييم أي من الكائنات أكثر ملائمة أو يعقد عليها الأمل في كل جيل.

ولفهم مفهوم وظيفة التناسبية هذه علينا أن ننظر إلى عملية توليد الحيوانات التي تقوم على أساس انتقائي حيث يقوم الأشخاص باختيار للجينات التي تحوي خصالا مرغوبة أكثر ويستمرون في توليدها، فربما يولدون فقط من الدجاج الأكثر خصوبة أو الغنم الأكثر صوفا وينجحون في تغيير صفات تلك الحيوانات. لذا فمعيار الاختيار عند هؤلاء ربما يعتبر وظيفة التناسبية أو الملاءمة. وعلى الرغم من هذا فمسألة التوليد الانتقائي للحيوانات يقوم فيها العنصر البشري بتحديد وتطبيق هذه الوظيفة. أما في حالة التطور الدارويني فلا مكان لكائن ذكي، لذا فوظيفة التناسبية المتخيلة هذه لا بد وأن تكون نتيجة القوانين المادية للكون ولا بد أن تكون نتيجة لظروف أرضية.

وما تقوم به لوغاريتمات النشوء هذه عبارة عن استغلال المعلومات المشفرة أصلا داخل وظيفة التناسبية أو الملاءمة؛ وعليه فإن «لوغاريتم النشوء» يحول المشكلة أو القضية بكل بساطة إلى مجال مختلف. وإذا افترضنا أن وظيفة الملاءمة هذه هي نتيجة للظروف الأرضية فعلينا أن نتذكر أن هذه الظروف الأرضية غير محتملة وغير واضحة بدرجة كبيرة. لذا فإذا افترضنا أن وظيفة الملاءمة قادرة على التشكيل فعلينا أن نبين سبب كونها العامل الأول الذي يعول عليه.

ثانيا لا يمكن بحال وضع تعريف لتلك الوظيفة، وحتى أصحاب القول بالنشوء أنفسهم يجدون صعوبة في وضع تعريف لتلك الوظيفة ووصف طريقة عملها، بل إن المحاولات المبذولة من قبل القائلين بالنشوء ذهبت إلى التكرار من أجل تبريرها.

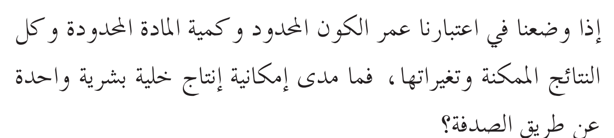
«بهذه الصورة تتنبأ النظرية أن الكائنات الأصلح ستكون أكثر إنتاجا للذرية، وتعرف الكائنات الأصلح (الأكثر ملاءمة) على أنها الكائنات الأكثر إنتاجا.» (جونسون: ٩١)

تعليقا على هذا التوجه يقول الفيلسوف والعالم المشهور كارل بوبر: "يصوغ بعض كبار القائلين بالنشوء (الدارونيين) النظرية بطريقة تجعلها تنتهي إلى القول بأن الكائنات التي تترك خلفها أكثر نسبة من الذرية تترك لنا أكثر كمية من النسل"، ولما كانت وظيفة الملاءمة غير واضحة التعريف كان من غير الممكن بيان كيفية عمل تلك الوظيفة لإنتاج ذلك الرقم الهائل من الحيوات سواء بطريقة علمية أو حسابية. وبينما يفضل المختبرون البساطة في التجارب التي تختبر فيها ميكانيكيات النشوء والارتقاء، نرى نحن التعقيد المتزايد في الحياة.

حدود الكون

قال الفيزيائي الشهير «كارل ساجان» مشيرا إلى عملية النشوء والارتقاء: «إن الصدفة تصنع المعجزات إذا أعطيت وقتا كافيا».

وبينما يصح هذا القول على المستوى النظري فعلى المرء أن يضع في الاعتبار أن الصدفة إن أعطيت الوقت لتأخذ في العمل ستنتج لنا نسبة عالية من النتائج عديمة الفائدة وغير مرتبة قبل أن تتكشف لنا عن معجزة. وفوق هذا فالكون الذي نعرفه له عمر محدود ويحوي كمية محدودة من المواد، لذا فالوقت الذي تستخدمه الصدفة هو وقت محدود. يدفعنا هذا إلى أن نثير سؤالا هو:



إذا وضعنا في اعتبارنا عمر الكون المحدود وكمية المادة المحدودة وكل النتائج الممكنة وتغيراتها، فما مدى إمكانية إنتاج خلية بشرية واحدة عن طريق الصدفة؟

والإجابة عن هذا السؤال هامة جدا حيث إنها ستحدد ما إذا كانت فرضية الصدفة تستحق انتباهنا أصلا.

ويوضح «دمبسكي» أن أي أمكانية داخل الكون المنظور تقل عن حدود الإمكانية الكونية تظل غير ممكنة حتى ولو افترضنا أننا استهلكنا كل المصادر المتاحة لاختبار كل الإمكانيات. وتفصيل هذه المسألة كما يلي:

الموارد المحتملة في الكون المنظور تعطينا تزويدات محدودة، ويوجد في هذا الكون الحسي المعلوم حوالي ١٠^٨٠ من المواد الأساسية. فوق هذا فخصائص المادة مثل الانتقال من حالة مادية إلى أخرى لا يمكن أن تحدث بمعدل أكبر من ١٠^٤٠ مرة في الثانية.

وتتوافق هذه السرعة مع زمن «بلانك» والذي يمثل أقل وحدة مادية معتبرة للزمن. وفي النهاية فالكون كله في مجمله ١٠^٢٥ ثانية (على فرض أن عمر الكون ما بين أصغر بليون مرة من ١٠ إلى ٢٠ بليون سنة).

وإذا افترضنا الآن أن أي تخصيص لحادثة تقع داخل هذا الكون المادي المعلوم يتطلب مادة واحدة على الأقل لتخصيصه ولا يمكن أن يتم في زمن أسرع من زمن «بلانك» فستعني لنا هذه القيود الكونية أن مجموع الأحداث المخصصة خلال التاريخ لا يمكن أن تزيد بحال عن ١٠^٨٠ × ١٠^٤٥ × ١٠^٤٥ = ١٠^١٥٠؛ ويلي هذا أن أي إمكانية مخصصة أقل من ١ في ١٠^١٥٠ ستظل غير ممكنة وحتى ولو جمعنا لها كل مصادر الإمكان المعروفة في الكون المنظور.

لذا فإمكانية ١ في ١٠^١٥٠ هي قيد الإمكانية الكونية؛ ومن الأمور المتضمنة داخل هذا القيد ١٠/١٥٠- أن الكون مكان صغير جدا لتوليد تعقيد مخصص عن طريق استنفاد كل الأمور الممكنة.

يفصل «شتاورت كاوفمان» هذا المفهوم في كتابه «بحوث» حيث يضع في اعتباره عدد البروتينات الممكنة ذات طول ٢٠٠ (يعنى ٢٠^٢٠٠ أو ٢٦^٨٠ تقريبا) وأقصى عدد للصدامات الزوجية على مدى تاريخ الكون (هو يقدر عدد الصدامات بـ ١٠^١٩٣ على اعتبار أن معدل رد الفعل الخاص بالتصادم يمكن قياسه بالفيمتو ثانية). وينتهي كاوفمان إلى القول بأن الكون المعلوم لنا لم يجد وقتا وزمنا كافيين منذ الانفجار العظيم كي ينتج البروتينات التي طولها ٢٠٠ ولو لمرة واحدة.

> **إذا وضعنا في اعتبارنا عمر الكون المحدود وكمية المادة المحدودة وكل النتائج الممكنة وتغيراتها فما مدى إمكانية إنتاج خلية بشرية واحدة عن طريق الصدفة؟**

ولكي يؤكد هذه الفكرة يقول: «يحتاج الكون إلى ١٠^٦٧ ضعف مدة حياته الحالية كي ينتج كل البروتينات الممكنة من تلك التي طولها ٢٠٠ ولو لمرة واحدة على الأقل.» (دمبسكي: ٩٨)

بيد أن من المهم أن نوضح أن القيمة المضبوطة لحدود الإمكانية الكونية ليست حاسمة، وحتى القيمة التقديرية كافية للحكم على توضيح ظاهرة محسوسة تقوم على الصدفة.

ويقدر «كارل ساجان» نفسه إمكانية الكائنات البشرية الناشئة عن خلية حية وحيدة بأنها صدفة واحدة من بين ١٠٢.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ صدفة.

وبوضع هذا التقدير إلى جانب حدود الإمكانية الكونية التي تمت مناقشتها سلفا إضافة لاستخدام الحس العام، يمكن لنا أن نرفض فرضية الصدفة كأصل للحياة أو تنوعها على الأرض.

قضية السجل الأحفوري

تأتي مشكلة السجل الأحفوري -والتي لم نناقشها بعد في هذا المقال بالتفصيل- مرتبطة بفرضية الصدفة هذه. فلو صح فرض الصدفة لكان عدد المحاولات العملية العمياء الفاشلة أكبر بكثير من عدد المحاولات الناجحة. وهو ما يعني أن السجل الأحفوري كان لا بد وأن يحوي عددا هائلا من أحفوريات لكائنات وأنواع فاشلة وظيفيا أو غير ملائمة مقارنة بعدد ضئيل من الأنواع الناجحة.

ومثلما يجب أن تزيد التجارب الفاشلة في عددها عن التجارب الناجحة، يجب أن تعكس الأحفوريات النسبة ذاتها.

وبينما توجد علائم أنواع منقرضة في السجل الأحفوري فلا يوجد عدد كبير من الأحفوريات التي تسجل التنوع الكبير الذي نتوقعه من الطفرات العمياء عند فرض وجودها.

وعلى الرغم من أن أسباب انقراض أنواع من الحيوانات مثل الديناصورات لا تزال محل جدل، فمن المتفق عليه أن الديناصورات كانت كائنات حية ناجحة في زمانها.

خاتمة

وفي الجملة حين يقوم أحد علماء الرياضيات بحساب إمكانية الفرض القائل بأن الصدفة هي التي أوجدت الحياة على ظهر الأرض سيجد أن من السهولة بمكان عليه أن يرفض هذا الفرض للمشاكل والإيرادات السابقة. فالحياة أعمق وأعقد من أن تؤخذ بهذه البساطة، فعمر الكون وكمية المواد المتوفرة فيه لا يكفي بحال من الأحوال لاستهلاك كل الإمكانات والوصول إلى صور حياتية متنوعة كتلك التي نراها أمام أعيننا على وجه الأرض. كما أن السجل الأحفوري لا يعكس لنا نسبة للتجارب الفاشلة مقارنة بالتجارب الناجحة كما نتوقع في حالة صدق فرض الصدفة. ولذا فلو تقدمنا لأحد علماء الرياضيات الموضوعيين بنظرية النشوء والارتقاء هذه لصاح في وجوهنا قائلا: «إما أنكم تريدون مني إغلاق عقلي وإما أن أرفض هذا الفرض كلية. فالحياة لا بد لها من صانع بديع حكيم عليم قدير يَدري ما يفعل.»

ومن هنا يصل عالم الرياضيات إلى النتيجة التي توصل لها ذلك الأعرابي الأمي الذي -برغم أميّته- يحسن النظر والفكر حين قال: «البعرةُ تدل على البعير، وآثار السير تدل على المسير؛ فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحر ذو أمواج أفلا يدل ذلك على اللطيف القدير، الحكيم العليم الخبير؟».

* كاتب وباحث تركي.

من وحي حراء
الرمز والدلالة

أ.د. عمار جيدل *

بسم الله كانت البداية، وبعونه يستمر العمل، وبتوفيقه تحقق المقاصد وتنال المعالي.

وبعد، يحتفل البشر بأزمنة معينة احتفالا كبيرا، ويحيون ذكراها كلما أزف موعدها، وهم بذلك يعبرون عن جلالة ذلك التاريخ، وأهميته بالنسبة لحاضرهم ومستقبلهم. ونلاحظ ذات الاهتمام بالأماكن، إن لم يكن أكبر فلا يختلف الاهتمام به عن احتفائهم بالأزمنة، إذ كلما قرأوا اسم المكان أو ذكر على مسامعهم، تحركت فيهم السواكن. فهل يعود احتفاؤهم بالزمان والمكان لأنهما كذلك في حقيقة الأمر؟ أم يعود إلى ما ارتبط بهما أو بأحدهما من وقائع مثلت منعطفات مهمة في تاريخ المحتفى بهما أو بأحدهما، ومسار حركة أمتهم فيما تستقبل من الأيام.

اختيار الأماكن عناوين لأعمال أدبية أو تربوية أو إعلامية يعبر بنفسه عن استحضار ذلك المكان -لا بوصفه مكانا- بوصفه رمزا له دلالات عظيمة في التربية والاجتماع وصناعة الحضارة.

وفق القائمون على هذا العمل التربوي والأدبي والاجتماعي والحضاري إلى جعل «حراء» عنوانا لمجلتنا. فما الذي استحضروه في اختيار هذا العنوان؟ وماذا يمثل هذا الاختيار؟ وما هي أبعاده؟

العنوان يعبر عن خط فكري وتربوي ورؤية حضارية نافذة؛ حراء الرمز يوحي بمعانٍ كثيرة لها دلالاتها العميقة في حياتنا بتشعباتها الفكرية والتربوية والاجتماعية والحضارية، الفردية والاجتماعية.

حراء الجبل المعروف بمكة، والغار -غار حراء- الذي نسب إليه هوة في ذلك الجبل، وهو من هذا الوجه مكان عادي، ولكنه ليس مكانا عاديا من جهة كونه محل تحنث النبي الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ، لهذا احتفى المسلمون بذكره، واختاره القائمون على المجلة عنوانًا لمشروعنا.

لعله من أبرز أسماء الأماكن التي استهل بها ظهور البوادر الأولى للسيرة العطرة لأستاذ الإنسانية وخاتمة الرسل، سيدنا محمد ﷺ.

وعندما يسمع المسلمون اسم هذا المكان أو يقرأ على مسامعهم يوحي ذكره برموز لها دلالات وحضور قوي في شحذ هممهم وتنشيط عزائمهم. فما أبرز ما يوحي به المكان «حراء» وإلى ماذا يرمز وما هي دلالات هذا الرمز في حياتنا المعاصرة؟ هذا ما نعمل على التعرف عليه في هذه المقالة.

ورد في صحيح السنة المطهرة ذكر غار حراء مرتبطا بحياة سيدنا محمد ﷺ، ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب بدء الوحي: «عن عائشة أنّها قالت أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فما كان يرى رؤيًا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء...»

كما ذكر في سيرة ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق قال: «وحدثني وهب بن كيسان، مولى آل الزبير، قال: سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثي: حدثنا يا عبيد، كيف بدء ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة، حين جاءه جبريل عليه السلام؟ قال: فقال: عبيد وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ومن عنده من الناس كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرا، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية، والتحنث التبرر.... وكان رسول الله يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين...»

تلك بعض النصوص التي ورد فيها ذكر غار حراء، تدل وغيرها من النصوص على أن لهذا الرمز دلالات عميقة، يفرض استحضارها في وضع مضامين الخط الحضاري والفكري والتربوي لمجلتنا الغراء «حراء»، وباختصار غير مخل يمكن أن نؤكد على ما يأتي:

١- كان غار حراء موضع تحنّث النبي ﷺ. واستحضار هذه

المعاني يرمز إلى وجوب العمل في مجلتنا «حراء» على التحقق بالتعبد لله وتحقيقه، وذلك لما يمثله من مدد أساسي في صناعة الوعي بالكون وإنشاء الفاعلية فيه؛ فالعبادة الجامعة تستغرق جميع مجالات الحياة المادية والمعنوية الخاصة والعامة. وما استحضار العناصر الإنسانية في التصرفات إلا بقدر استحضار التعبد لحظة المزاولة الاجتماعية للعبادة؛ فهي متناسبة معها وجودا وعدما زيادة ونقصانا، إذ كلما زاد التعبد زادت العبادة، وكلما زادت العبادة نمت العناصر الإنسانية في الإنسان المتعبد نفسه. هذا ما نطمح إلى جعله مقصدا رئيسا في خط مجلتنا، أي التحنث من أجل الفعالية الإيمانية بأبعادها الاجتماعية لا من أجل التباهي والزهو و...

٢- التجمل بالصبر مقصد آخر يوحي به المكان «حراء». ومجلة تقوم على تحقيق هذا المقصد حري بها أن تنشر ثقافة صناعة الصبر على المستوى الاجتماعي والتربوي. ويتعين للقيام بهذه الوظيفة معرفة دقيقة -وفق الطاقة البشرية- بضغوط الزمان والمكان، دون الوقوع في شراكهما، بغرض تحديد المبتغى في لحظة التبليغ والتربية، وتيسيرا للقيام بهذه المهمة يتعين تحصيل معرفة جيدة بعقلية المتلقي وحاجاته النفسية والاجتماعية.

٣- يرمز عنوان مجلتنا إلى التأسيس لثقافة الاستعداد للتلقي، وما يفرضه من تحرير وتحرر من المكبلات الأيديولوجية التي تحرم كثيرا من الخلق من رؤية الحق والإذعان له. وتأسيسا لهذه الثقافة يجب النظر إلى المخالف والموالف على حد سواء بعين الشفقة والرحمة والإخاء، والابتعاد عن لغة الإقصاء والزهو بالإيمان تحضيرا لقبول الحق والإذعان له. فيتعين -حسب تقديرنا- أن يكون من مقاصدنا الرئيسة في المجلة التلطف مع الخلق وإسعافهم لتهيئة أنفسنا وأنفسهم لقبول الحق والتصرف وفق ما يفرضه الخضوع له.

٤- تحقيق المقاصد السابقة، يفرض طاقة نفاثة لا تنضب، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت عملية التجدد الإيماني حيوية مستمرة تستغرق جميع الوقت، فيكون التزود بالطاقة الإيمانية مستمرا، ذلك أن الطريق إلى الحق مسلك طويل وشاق وممتع في ذات الوقت، زيادة إلى الترغيب والترهيب المسلط على الثابتين على خط الرسالة وما يفرضه من طاقة متجددة باستمرار. إن صح (وهو محض فرض) أن نتصور رجلا بلغ تمام الرضا في العبادة؛ فإن الثبات على المكان يفرض جهدا أكبر من الجهد المبذول في بلوغ تلك الرتبة، هذا الشخص أشبه بمن بلغ النهاية العظمى على بكرة دائرية دوارة (متحركة)، البقاء على ذروة تلك البكرة المتحركة يفرض جهدا مستمرا، إذ بمجرد الغفلة عن الحركة -بذل الجهد- يسقط فيتحول من القمة إلى القاع.

٥- أرى أن تجعل المجلة «حراء» المراجعة المستمرة ركنا ركينا في مشروعنا، ولا يتأتى تحقيقه إلا إذا كانت محاسبة النفس تمرسا ومزاولة تستغرق جميع ميادين الحياة وتطال جميع الأفعال مهما كانت صغيرة ومراجعة المكاسب بغرض الاستدراك على ما فات. نجاح هذا المسعى وجعله غاية يفرض قبول النقد العلمي الموضوعي، والتأسيس له على المستوى العلمي والتربوي بل وحتى الاجتماعي.

٦- كان رسول الله ﷺ وهو في غار حراء، وفق ما ورد في السيرة العطرة، يطعم من جاءه من المساكين. ومجلة اختارت «حراء» عنوانا لها، ينبغي أن تكون ملاذ الجائعين معنويا وتربويا، تطعمهم لوجه الله لا تريد منهم جزاء ولا شكورا، تتبنى قضاياهم الفكرية والتربوية، وتسعى جاهدة إلى تقديم أجوبة شافية عنها، تقدمها مسربلة بالرفق والشفقة والحب. ولعلها بذلك تكون سببا في هدايتهم ومن ثم إسعافهم في الكشف عن القوة المستودعة فيهم، ليكونوا فاعلين بالإيمان في حياتهم الاجتماعية والتربوية.

٧- يرمز «غار حراء» إلى الأمن والاطمئنان، وفق ما ذكره العلامة بديع الزمان النورسي في المكتوبات (ص:١٧٧) نقلا عن أهل القلب والصلاح.

ومجلة اختارت خطا فكريا يرمز إليه اسم «حراء» يفترض أن يكون من مقاصدها الرئيسة تحقيق الأمن والاطمئنان بكل معانيه وأبعاده، وهي في ذات الوقت ينبغي أن تكون أمنا واطمئنانا في مواضيعها ومعالجاتها ومقاصدها.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

* جامعة الجزائر المركزية -الجزائر.

العنوان يعبر عن خط فكري وتربوي ورؤية حضارية نافذة؛ حراء الرمز يوحي بمعانٍ كثيرة لها دلالاتها العميقة في حياتنا بتشعباتها الفكرية والتربوية والاجتماعية والحضارية، الفردية والاجتماعية.

طرق الإرشاد في الفكر والحياة

هذا الكتاب فريد في نوعه، إذْ هو ليس كما قرأنا من كتب في الموضوع نفسه بل يمكن أن نطلق عليه عنواناً آخر فنقول إنه كتاب في «فقه المعاناة والألم» من أجل الدعوة، بالإضافة إلى كونه قدحةً تضيءُ الجوانيَّة العميقة للإنسان، وما تطفح به من نازع إيماني فطري عميق.

والكتاب يكاد كله يكون عملية تحريكية لهذه الفطرة المدركة، وترجمة رؤاها والتعبير عن أهدافها ومقاصدها، كما أنَّهُ ضِدّ الفوضوية الروحية والفكرية التي تعاني منها بعض الدعوات. والكتاب – بعد ذلك – يهدف إلى إرساء قواعد أساسية منظمة في العمل الدعوي تحول بين الداعية والتفلت إلى مجالات أخرى غير ملتزمة وغير منضبطة، وبذلك تحتفظ الدعوة بقواها وتمنعها من الإنفلات والتبدّد في غير ما جدوى.

المؤلف: محمد فتح اللّه كولن –المترجم: إحسان قاسم الصالحي – عدد الصفحات: ٢١٦– دار النيل للطباعة والنشر/فرع القاهرة: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤+

ونحن نقيم صرح الروح

يعاني المسلمون تفككاً روحياً رهيباً، وهذا التفكك هو سبب مشاكلهم الإيمانية وأزماتهم الحضارية.

وهذا الكتاب القيم يشخص عِلَّةَ هذا التفكك، ويبين أسبابه وتداعياته. فعلَّةُ العلل في ذلك هو انهيار صرح الروح وسقوط مناراته العالية الذي أحدث دوياً سمعه العالم كله، وأحدث اضطراباً هائلاً في شخصية المسلم وفي أُسس إيمانه. والكتاب دعوة مخلصه للأيدي الطاهرة والنظيفة لتتكاتف بينها في محاولة إقامة هذا الصرح المتهاوي على قدميه من جديد فيعود المسلم التائه في صحارى الاغتراب لولوجه والاحتماء به من غربته، ويَؤوب عقل المسلم المشتّت بين تيارات الأفكار ليلتقي نَفْسَهُ فيه، ويلتقي كُلَّ أصله، وجوهر حقيقته. إنَّ هَذَا الكتاب النفيس الذي لم نقرأ مثيلاً لـه يرسم خارطة دقيقة وتفصيلية للكيفية التي يمكن بها إقامة هذا الصرح العتيد من وهدته، إنه يجوب القلب البشري ويأتي بلبنات البناء من مقالعه، ويجوس خلال الروح ويعود بفلذاتها لتكون الحجر الأساس فيه، ولكي يعلو شامخاً بحيث يراه العالم كله من أي جهة نظر إليه، ويجد في ظله الأمن والأمان. وخير من يقوم بهذه المهمة الإيمانية الحضارية هو جيل الطهر والإيمان الذي لم تتلوث روحه، ولم يتنجَّسْ قلبه.

والكتاب طافح بالأمل في مستقبل قيام هذا الصرح، وهو حين يقوم فسيكون أعجوبة من أعاجيب هذا العصر، يعلو على كل صرح ويسمق فوق كل حضارات القلب والروح في الماضي والحاضر.

المؤلف: محمد فتح اللّه كولن – المترجم: عوني عمر لطفي اوغلو– عدد الصفحات: ١٧٦ – دار النيل للطباعة والنشر/فرع القاهرة: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤+

النورسي أديب الإنسانية

هذه بحوث كان كتبها الأستاذ «الأمراني» في أوقات مختلفة، وتحت عناوين مختلفة، غير أن موضوعها واحد، وهو المنحى الأدبي والشعري عند الإمام «النورسي» رحمه الله في رسائله «رسائل النور».

والأستاذ «الأمراني» أديب وشاعر وناقد معروف، فتقويمه للإمام النورسي، وعَدّه واحداً من كبار الأدباء والشعراء يأتي ضمن دراسة نقدية مُعَمَّقة يمكن الاطمئنان إليها، والوثوق بها.

وإلى ذلك فإن هذه البحوث تكتسب أهمية خاصة لدى المعنيين بالأدب لكونها محاولة جادّة في الكشف عن الصلة والنسب بين العبقرية الشعرية والعبقرية الدينية، فالعبقريتان كلتاهما تنبعثان من رهافة وجدانية عميقة الغور في النفس الإنسانية.

المؤلف: أ.د. حسن الأمراني – عدد الصفحات: ١٦٢ – دار النيل للطباعة والنشر/فرع القاهرة: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤+



الشروق

الغروب ميناء للضوء الراحل...
الغروب وقت حزن على الدوام...
ما أن يحين الأوان،
حتى تشرق الشمس،
مثلما غربت،
هي تجري حسب نظام دقيق...
دقيق...

